رواية قصيرة

هيرمان هِسه

ترجمة: إقبال عبيد

Telegram:@mbooks90

في الشمس العتيقة

Hermann Hesse

In der alten Sonne

In the old Sun

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم

(في الشمس العتيقة) واحدة من الروايات الأولى في حياة هيرمان هسه، فقد انتهى من كتابتها في عام 1908 ونشرت أول مرة في عام 1914، وقد وصفت دار النشر «كويوتي كانيون برس» هذه الرواية، التي سبقت أعمال هيسه التي أكسبته شهرته، بأنها "الرواية المفقودة" التي لم تعاد طباعتها أو ترجمتها إلى اللغات العالمية مجدداً.

تتناول القصة حياة أربعة من المسنين، الذين لأسباب مختلفة، انتهى بهم المطاف في مأوى للفقراء قرب مدينة جيربرساو الألمانية الصغيرة، مسقط رأس الكاتب. لتبدو معها الرواية كنسيج يستشف به هسه مدارج صباه، ومملكة روحه، ومآلات شيخوخته في عالمه المتداعي، حتى بدت وكأنها أولى الرسوم على جدران السجن النفسي.

كتب هيرمان هيسه أكثر من عشرين قصة، في سنواته الأولى، يستذكر بها مسقط رأسه، مدينة كالْف الصغيرة، في الغابة السوداء، التي كان يسميها عادة جيربرساو: مرج الدباغين. الذين ما زال يمكن مشاهدة بعضهم اليوم على ضفاف النهر، ويمكن تتبع المشاهد التي وصفها هيسه في المدينة القديمة ولقاء آثاره المحفوظة في متحفه الخاص بها. هكذا تشربت أعمال هسه بالتوغل في البحث عن الأصالة والمعرفة الذاتية والروحانية للإنسان. هسه الذي عاصر حربين عالميتين وعاش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحداثهما، كان على الدوام من المناهضين للحرب، فعُدَّ خائنًا ومطاردًا ولاجئاً في سويسرا إلى وفاته في مونتانيولا تيسن عام 1962.

هذه الرواية من أولى خطوات هيرمان هيسه في السير وحيدًا. إذ لم يكن يدري إن كان سينجو أم يتحطم. ولعل هيرمان هيسه، يعرف أن كتاباته تمتلك صفة كونية، فهو لم يتنبأ بالكارثة البشرية، في عالم يسير بطاقة اندفاعه غير العاقلة، فقط، بل وبشيخوخة العالم القديم الذي سيلزمه كثير من العناية بروحه الإنسانية.

الرواية تعبِّر عن الحياة والبحث عن الذات بكافة أشكالها، وقضية الوقوف والتعلق بنقطة سالفة في حياة الشخصية الرئيسة، ورؤى الأحداث الاجتماعية الإنسانية بين أفرادها. تكشف الرواية أيضًا في إطار فني لغوي مثقل بالدلالات، تلك التحولات الاجتماعية التي رصدها المؤلف في خانة الذكريات، التي تعبر عنها كل الشخوص في إطارٍ اجتماعيٍّ ساخرٍ، ويجري من خلالها انتقاد السلوكيات غير السَّوية في المجتمع، وخلق صراع دائم بينها وبين القيم والنظم المستحدثة. تسعى الرواية للتعبير عن العلاقات الاجتماعية وارتباطها ارتباطًا وثيقًا بتكوين معرفة الذات الإنسانية، والمساهمة في «خلق» علاقات جديدة ورؤى أعمق للنفس البشرية وتقلباتها وآلامها وطموحاتها، بدءاً من قاع هذا المجتمع، لتعبِّر عن الواقع وتناقضاته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصراعاته وأزماته.

بدأ هيسه شاعرًا، وتميزت كتاباته بالوعي بكثافة العزلة الروحية للإنسان المعاصر، ويمكننا قراءة ما يتناوله من وحشة أبطاله في هذه الرواية في مقتطف من قصيدة "شكوى":

كيف هي الأيام...؟

ما أثقل الأيام!

لا نار تدفئني

لا شمس تضحك لي

كل شيء فراغ

كل شيء بارد وبلا رحمة

حتى النجوم الحبيبة الصافية

دون عزاء تنظر إليّ

منذ خبرت في قلبي

أن الحب قابلٌ للموت.

تحوّل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالم لا يبرعم الآن من أجلي

لا الريح تناديني ولا صوت العصافير

طريقي أصبحت ضيّقة، أعبرها

دون صديق يرافقني

وكل نظرة إلى الوادي المرح

حيث فتوّتي كانت مطمئنة

هناك الآن خطر

وعذاب مرير

ولو مرة هبطت أيضاً

لتهدئة حنيني الشديد للوطن

لوقف الموت هناك، كما في كل مكان،

على طريقي.

مشوار في الليل

جفنة ومرج، حقل وشجرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعها في صمت مكتف

كل واحد مع نفسه تماماً

كل واحد غارق في حُلمه

غيمة تحوم ونجمة مضيئة

كما لو مدعوّة لحراسة قصوى

وفي درجات متصاعدة

يرتفع الجبل معتماً، عالياً وبعيداً

كل شيء يمكث وله ديمومة

وحدي أنا مع أوجاعي

أبتعد عن قلب الرب في الأرض

ودون معنى.

الزهور الأولى

جنب الساقية

خلف المراعي الحمراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذه الأيام

فتحت عيونها الذهبية

زهور كثيرة صفراء

وأنا الذي من البراءة سقطت من زمان

تتحرك في الأعماق ذكرى ساعة صباحية مذهّبة

في حياتي

وناصعاً تراني بعيون الزهور

أردت الذهاب لقطف الزهور

والآن أتركها حيث هي

عائداً إلى البيت، أنا الرجل العجوز.

أحياناً

أحياناً عندما يدعو عصفور

أو تعبر ريح الغصون

أو ينبح كلب في أقصى المزارع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقتها علي أن أصغي طويلاً وأصمت

عائداً إلى آلاف السنين المنسيّة

تهرب نفسي

حيث العصفور والريح التي تهبّ

أخوَين لي كانا وبي شبيهَين

شجرة تصير نفسي

حيواناً، نسيج الغيوم

متحوّلة وغريبة تعود

وتسألني... كيف أجيب؟

- إقبال عبيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

أيًّا يكن الوقت، ربيعًا أو صيفًا، أو حتى في باكورة الخريف، يجيء يومٌ لطيفٌ، معتدل، دافئٌ بما يكفي للتسكع في الهواء الطلق، نحو الدرب المفرط في تعرّجه الذي يُفضي إلى طريق (أولباش). فقبل اجتيازك سلسلة البيوت العالية المضطجعة على أفق المدينة، تقع بقعة ساحرة وخلابة تمتد فيها الشمس دافئةً على الطريق الملتوي صعودًا إلى قمة الهضبة. المكان محصّن من الرياح، وثمّة بضع أشجار فاكهة ملتوية هرمة، لا تطرح الفاكهة واقعًا، بل قليلًا من الظلال. على جانب الطريق يقع مرجٌ من العشب الأخضر الناعم، الذي يغريك بطريقة ودية بتدرّجاته الناعمة للجلوس أو لتمدِّدَ فوقه جسدك بأكمله. يُشرِق الطريق الأبيض في أشعة الشمس، بينما يصعد بهدوءٍ مرسلًا غلالةً من الغبار يستقبلُ بها كل عربة زراعية أو حنطور أو عربة بريد (1)؛ ليطلّ على مشهد أسْقفٍ داكنة تحتشد في المنحدر الحاد، تتخللها قمم أشجار هنا وهناك، نزولًا إلى قلب المدينة -إلى السوق- الذي بمرآه من هنا، يخسر قدرًا كبيرًا من مهابته؛ إذ يبدو مثل نموذجٍ لمستطيلٍ غريب الشكل من البيوت المتباينة، تتخلله نتوءات فضولية من العتبات الأمامية ومصاريع الأقبية.

في مثل تلك الأيام المعتدلة المشمسة، دائمًا ما يَحتلُّ المرج العشبيَّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المريخ، على جانب الطريق المرتفع صعوداً إلى الهضبة، جماعةٌ صغيرةٌ من الرجال الجاثمين فوقه، الذين لا تنسجم وجوههم الصلفة التي سفعتها الأنواء، تماماً وإيماءاتهم الوادعة الكسولة، أصغر هؤلاء يمضي سادراً في سنواته الخمسين. يجلسون أو يستلقون في سكينة على دفء الخضرة؛ صامتين، أو متمتمين بحوارات قصيرة متقطّعة؛ يدخنون الغلاوين القصيرة السوداء، ويبصقون على الدوام، في إشارة احتقار للعالم، نحو المنحدر الحاد أسفلهم. يراقبون القلة من العمال الذين يجتازونهم ملياً، ويصنّفونهم بشكل صارم، ليقرروا في نهاية المطاف، تبعاً للحكم، إما تحيتهم بإيماءة ودية بالرأس، و(كيف حالك يا رفيق؟) أو يَدَعونهم يجتازون بصمتٍ ينمّ عن استخفاف.

الغريب الذي رأى مجموعة المسنّين المتحلّقين هناك، واستعلم في أول شارعٍ وَصَلهُ عن جماعةٍ غريبةٍ من المتبطّلين الشِّيب، يُمكنه أن يعرف من أي طفلٍ أنهم كانوا يُعرَفون باسم (إخوة الشمس). العديد من هؤلاء الغرباء كانوا سيلتفتون مجدداً إلى أولئك الشِّيب الوامضين تحت أشعة الشمس، ويتساءلون كيف عساهم حصلوا على مثل هذا الاسم الشاعري الجليل. بعض عشّاق الأسفار شعروا بإثارة غامضة جراء الاسم، فاختلقوا أن المتسكعين الستة هم بقايا سلالة عريقة منقرضة من عبدة الشمس. لكن النجم الذي سُمّي "إخوة الشمس" تبعاً له توقفَ عن السطوع في أي سماءٍ منذ أمد بعيد. إذ لم تكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك سوى يافطة لحانةٍ بائسةٍ أزيلت قبل بضع سنين. واختفى اسمها وصيتها، وصار المبنى لاحقًا مأوىً لفقراء المدينة وعَجَزَتها، وما يزال يؤوي بالفعل عددًا من الرواد الذين عاشوا ليروا غروب الشمس عن يافطة الحانة، وتحصّلوا قرب مشربها، مجددًا، على مسكنهم ووصيّهم الراهن.

البيت الصغير الذي انتصب في نهاية الزقاق المنحدِر والمدينة، قرب البقعة المشمسة من المرج، قدّم للرائي استقبالًا مشوهًا كئيب المنظر؛ فحتى وقوفه بشكل سويٍّ بدا كما لو أنه كلّفهُ جهدًا كبيرًا، وما عاد لديه ما يعرضه من الصخب وطقطقة الكؤوس، ولا مزاح ولا ضحكات من تلك التي كان يشهدها، ناهيك من المشاجرات المشحونة وحرب السكاكين. فمنذ أن بهت دِهان واجهته الزهري وتقشّر في لطخٍ مشقّقة، صار متوافقًا تمامًا مع القروح المزمنة للمتشردين، لتتناغم وظيفته مع مظهره الخارجي -وهذه ليست الحالة دائمًا مع المباني الحكومية في أيامنا الراهنة- فقد أفهَمَ الجميع، بوضوحٍ وأمانةٍ، بل وببلاغةٍ، أنه مأوىً لمن صارت مراكب حياتهم حطامًا، وتخلّفوا عن الإقدام، قانطين في المياه الضحلة الراكدة، حيث لا خطط تُجدي، ولا موارد خفية، تعيدهم مجدداً إلى مجرى الحياة.

لحسن الحظ، كان بؤس هذه الانطباعات محدودًا في محيط إخوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشمس. لقد أخذوا أنفسهم على محمل الجد قدر الإمكان. في الواقع، لقد تصرفوا الآن، بعد أن حرروا أنفسهم من ضجيج الشوارع وصخب العالم، كما لو أن المطاردة قد بدأت للتو؛ فتعاملوا مع شؤونهم المتواضعة بجدية وإصرار لم يكن ليتسنّى لهم عادةً وسط أنشطتهم السابقة. ومثلها مثل أي جماعة صغيرة أخرى من الرجال كانت تحكمهم قواعد نابعة من السلطة المطلقة لرئيس المؤسسة، ويُعامَل أفرادها على أنهم وجود تخيُّلي دونما أي حقوق، لكنهم آمنوا بأنهم جمهورية صغيرة، لكل مواطنٍ حرٍّ فيها نفس اللقب والرتبة والموقع، وكان كل واحد منهم عازمًا بحزم على ألّا يُداخل نفسه شيء من الإحباط أو الحطّ من قدره ولو بسماكة شعرة واحدة.

يشترك إخوة الشمس أيضًا مع آخرين بأنهم اختبروا القدْر الأكبر من مصائرهم وأشباعهم وأفراحهم وأتراحهم، في مخيلاتهم أكثر مما عايشوه في الواقع المحسوس. وقد يأتي ظريفٌ بملاحظةٍ، بعد مقارنته حياة هذا الحطام البشري بحياة المواطنين العاملين، بأنّ الفرق بينهما محض خيال؛ إذ إنّ كليهما على السواء يعكف على شؤونه المتواضعة والجسيمة بالقدر نفسه من الانهماك، وفي المحصلة، قد لا يكون نزيلٌ عاثر الحظ من شاغلي ملجأ المتشردين أحطّ في عين الرب من شخصيات كثيرة مرموقة ومحترمة. ولكن حتى دون الوصول إلى هذا الحد، فإنه يمكن لمتابع متّئدٍ الزعمُ بأن حياة إخوة الشمس تستحق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التأمل، إذ إنّ حياة الإنسان، حتى في أطوارها البدائية، دائمًا ما تعرض قصصًا مسلية تستحق الالتفات.

بينما يدنو الوقت الذي سينَسى معه الجيل الحالي اسم حانة "الشمس" العتيقة وإخوة الشمس، ويُنقل أفرادها الفقراء المنبوذون ليُعنى بهم في أماكن أخرى، بات محبّذاً تدوين سيرة البيت القديم ونزلائه. ومساهمة في هذا التأريخ، ستسردُ هذه الصفحات شيئًا من حياة أول أخوية من إخوة الشمس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

في العصر الذي كان شباب مدينة جيربرساو(2) ما زالوا يرتدون السراويل العريضة القصيرة أو حتى الفساتين، وصورة الشمس المطروقة من الصفيح ما زالت تتأرجح مزهوة فوق باب المأوى الحالي، على طول الذراع الحديدية، مختالةً في واجهته الزهرية، وفي أواخر أيام الخريف، عاد كارل هورلين إلى مسقط رأسه. هو ابن هورلين الحدّاد في شارع سِنْفغاس، الذي توفي منذُ أمد بعيدٍ. كان عمره قد تجاوز الأربعين بقليل، فلم يعد يعرفه أحد، فقد غادر وهو صغير جدًا، ولم يره أحدٌ في البلدة منذ ذلك الحين.

أما الآن، على كل حال، فهو يرتدي حلة أنيقة، لديه شارب وشعر مشذب بعناية، وساعة جيب بسلسلة فضية، يرتدي قبعة أنيقة، وياقة نظيفة مرتفعة. زار بعض معارف عائلته، وعددًا من أصدقاء مدرسته القدامى، وتصرّف بشكل عام كما لو أنه رجلٌ رحل بعيداً وصار ذا شأن، يدرك قيمته، دون حاجة إلى الإصرار على توكيدها. لاحقًا توجّه إلى مبنى البلدية وقدّم أوراقه، معلنًا أنه قد قرر الاستقرار في المكان. بعد إنجاز المقدمات الضرورية، انهمك السيد هورلين في أنشطة غامضة ومراسلات، وسافر مرارًا إلى خارج المدينة، ثم ابتاع أرضًا في قاع الوادي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك، في موقع سابق لأعمال بترولية كان قد تعرض لحريق، بدأ ببناء بيت جديد من الطابوق، واسطبل، ومخزن للمؤن بالقرب منه، وبين الاسطبل والمنزل مدخنة ضخمة من الطوب. في تلك الأثناء، كان يُرى من حينٍ لآخر في المدينة، يحتسي الشراب في المساء. في بداية جلسة الشراب يكون هادئًا ورزينًا، لكنه ما يلبث أن يعلو ويثقُل صوته بعد تجرّعه بضع كؤوس، فلا يُخفي حقيقة أنه يملك من المال ما يكفيه ليعيش حياة رجل نبيل. إلّا أن هذا الرجل وغدٌ متبطل وعبقري ورجل أعمالٍ، ولأنه ينتمي إلى الطبقات الدنيا فلا يمكن أن يهدأ له بال قبل أن يتمكن من تدوين ستة أصفار قبل الأرقام التي تُفصح عن ثروته.

Telegram:@mbooks90

استعلم مُقرِضوه عن تاريخه، فوجدوا أنه إلى ذلك التاريخ لم يقم بعملٍ ذي شأن، لكنه كان موظفًا في العديد من المتاجر والمصانع؛ ليتم ترقيته بعد ذلك إلى مشرف عمال. إلا أنه حصل مؤخرًا على ميراث جيد؛ منحه بعض الناس لقاء ذلك قدرًا من الاحترام، وبدأ عدد من أصحاب الشركات توظيف أموالهم في مشاريعه. وبعد فترة وجيزة، أقام مصنعًا كبيرًا نسبيًّا، جيد البناء، عرَضَ هورلين انطلاقًا منه تقديم نوع من البكرات التي تحتاجها صناعة الأنسجة الصوفية.

ما كاد المصنع يُفتتح، حتى تعرض مُتعهّده للمقاضاة من الشركة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسها التي كان يعمل سابقًا مشرفًا فيها، بدعوى سرقة حقوق الاختراعات واستخدام عدد من الأسرار التقنية التي تعلّمها هناك. خرج من القضية دون خسارة قدر كبير من سمعته، ولكن الكلفة المالية كانت ثقيلة؛ فقام بدفع أعماله بحماسةٍ مضاعفةٍ، مخفّضًا أسعاره إلى حد ما، ومغرقًا البلاد بالإعلانات.

الطلبات لم تكن تتوقف، والمدخنة الضخمة تنفث الدخان ليلًا ونهارًا، ولسنوات قليلة انتعش هورلين ومصنعه، وحظي بالاحترام والتمويل الكافيَيْن.

لقد وصل إلى هدفه، وحقق حلمه القديم. فقد حاول أكثر من مرة في شبابه جمع ثروة، لكنما الميراث المفاجئ هو الذي جعله ينهض على قدميه وينفّذ خططه الجريئة. ترف الثروة لم يكن هدفه الوحيد؛ بل إن شعلة أهوائه كانت تميل إلى الحصول على موقع كبيرٍ ومسيطر في العالم. كان يمكنه أن يصير زعيمًا هنديًا، أو مستشارًا ملكيًّا، أو حتى رئيسًا لرحلات الصيد (3)؛ لكن حياة مالك مصنع بدت له أكثر راحة واستقلالية. سيجار في زاوية فمه، وابتسامة دقيقة متأمّلة تعلو وجهه، يُطلُّ من النافذة، أو يجلس إلى مكتبه؛ يُملي بشتّى الأوامر، أو ليوقع عقدًا، أو يستمع للاقتراحات والطلبات؛ أن يعقد حاجبيه المتغضّنين بيُسرٍ مثل أي رجل أعمال، مرةً بتزمّتٍ طاردٍ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخرى بتنازلٍ ينم عن طيب خاطر، مع شعور دائم بأنه قائد للرجال، وأن الشيء الكثير يعتمد عليه؛ هذه كانت موهبته التي برع فيها، إلا أنها جاءت للأسف في وقت متأخر من حياته. الآن فقط صارت أمانيه كلّها بين يديه؛ فلديه القدرة على أن يفعل ما يشاء، يرفع من شأن الأشخاص أو يحط من قدرهم، يُطلق زفرات مبتهجة بسبب عبء الثروة، ويشعر بأنه محسود من الكثيرين. استمتع بكل هذا بانغماس الذوّاقة، واستغراق تام؛ لقد تمرّغ في السعادة، وشعر بأن القدر منحه أخيراً المكانة التي يستحقها.

في الوقت ذاته، كان المنافس الذي ازدهر على حسابه، قد قام باكتشاف جديد جعل من المنتجات السابقة عديمة الفائدة بعد طرحه، ودفع الآخرين إلى تخفيض أسعارهم. ولأن هورلين، مع كل اعتداده بنفسه، لم يكن عبقريًّا، وليس ملمًا إلّا بالأمور السطحية من تجارته، خسر في البداية بشكل بطيء ولاحقا بشكل متسارع، أكثر من الذي خبره في صعوده، حتى وصل أخيرًا إلى نقطة لا يستطيع معها إخفاء الهزيمة عن نفسه. وفي استماتة يائسة، لجأ إلى بعض التجاوزات المالية الجريئة، والتي ورطته وعددًا من دائنيه وقادتهم إلى إفلاس تامٍ مهين. فرّ هورلين، لكنه قُبض عليه وأُعيد إلى المدينة، وحوكم، وزُجّ به في السجن. وعندما ظهر مجددًا في المدينة بعد عدة سنوات، كان شخصًا محطَّمًا لا يؤتمن، ولا فرصة له للبدء من جديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في البداية عثر على عملٍ متواضع؛ إلا أنه في أيام اتّقاده، وقبل أن تهب العاصفة صار مدمناً على الشراب بشكل موارب، وما كان مَخفيًّا ويُعدُّ قليل الأهمية حينها، صار الآن فضيحة عامة. فصُرف من وظيفة المحاسب المتواضعة لأنه لا يستحق الثقة، ثم صار مندوب تأمين، فأخذ على عاتقه زيارة كل حانات الحي. خسر هذه الوظيفة أيضًا، وعندما حاول أن يُجذّف ببيع أقلام الرصاص وعيدان الثقاب من بيت إلى بيت، لم يستطع جمع دخل كافٍ، فغرق ليصبح عبئًا على المجتمع.

فجأة صار في تلك السنوات كهلاً متهالكًا؛ إلا أنه احتفظ برصيد يسير من المهارات الصغيرة، وبسلوكٍ ظاهريٍّ ساعده على تجاوز بعض المنعطفات الحرجة، وحافظ على أَثَرِه بين الطبقات الفقيرة في الأماكن العامة. حمل معه إلى تلك الأماكن بعض المهابة والإيماءات المؤثرة، وأسلوباً حديثاً بوقعٍ طيبٍ، بيد أنه خاوٍ من أي حقيقةٍ، سوى طاقته التي ما زال يتمتع بها للخطابة بين عديمي الفائدة من أهل البلدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

في ذلك الوقت لم يكن هناك أي بيت للفقراء في جيربرساو، فكان يتم رعاية الأفراد عديمي الفائدة للمجتمع عبر مخصصات صغيرة من موارد المدينة التي تأتي من هنا وهناك، ويقطنون بوصفهم نزلاء لدى بعض العائلات، حيث يُزوّدون بضرورات الحياة، ويتم توظيفهم تبعًا لقدرتهم في أعمال منزلية خفيفة. ولأن هذا النظام يخلق شتى أنواع المشاكل، على أي حال، ولأن لا أحد يرغب في استقبال صاحب المصنع المفلس الذي حظي بكراهية السكان جميعهم، رأى المجتمع أن من واجبه تأسيس ملجأ خاص للفقراء. في تلك اللحظة تحديداً وضعت حانة الشمس العتيقة البائسة في المزاد، فابتاعت البلدية الحانة، وأودعت فيها أول نزيل، هو كارل هورلين، ولاحقًا تبعه آخرون؛ أصبحوا يعرفون بإخوة الشمس.

علاقة وطيدة كانت تجمع هورلين قبل الآن بـ"الشمس"، لأنه وهو في مهوى انحداره، كان يطرق أماكن أحقر وأكثر انحطاطًا في كل مرة، إلى أن جعل منها مقره الدائم. صار من زبائنها الدائبين؛ يجلس في المساء على الطاولة نفسها مع ندماء آخرين، الذين بعد أن أتي دورهم ليجور الزمان عليهم؛ تبعوه مُعدَمين مُبغَضين إلى البيت نفسه. كان حقًّا سعيدًا بأن يكون هذا مسكنه. وفي الأيام التي تلت شراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحانة، وعندما كان النجارون منهمكين بإصلاح حالها، كان يقف لمشاهدتهم من الصباح إلى المساء.

في صباح يومٍ مشمس معتدل وصل هناك كالعادة وأخذ موقعه بالقرب من الباب الرئيس؛ يراقب العمال أثناء عملهم بالداخل. إحدى الأرضيات كانت محطمة ويلزمُ إصلاحها، والسلالم المتهالكة يجب ترقيعها، وتثبيت درابزين عليها، وهناك حاجزان رقيقان يجري تركيبهما. كان مراقب البلدية يلاحق العمال، الذين كانوا بدورهم يتصنعون الجدية في العمل، وأطفال المدارس يتنقّلون من غرفة إلى أخرى. كل ذلك النشاط كان يُسعد هورلين، فتطلّع بنظرة متهلّلة، متجاهلًا كل التعليقات السيئة التي يطلقها العمال عليه. دسّ يديه في الجيبين العميقين لمعطفه الملوث بالشحم، وثنى بنطال الصدقة من الأسفل؛ بنطالٌ واسع وطويل عليه، يُظهر ساقيه تحت تموجاته كفتّاحة فلين. أخذ سحبات من غليونه الفخاري، لم يكن مشتعلًا، ولكن رائحته معبأة بالتبغ. إحساسه بقرب لجوئه إلى مأواه الجديد، وتعهده لنفسه بمعيشة أكثر إنصافًا تبدأ منه، ملأ العجوز السكير بشعورٍ من الفضول والحماسة السارّة.

بينما كان يشاهد تثبيت الدرج الجديد، وهو يُقيّمُ بصمتٍ جودة ألواح الصنوبر الرفيعة وعمرها، شعر فجأة بأنه دُفع جانبًا. وحالَما نظر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى جهة الشارع، رأى عاملًا يحمل سقالة كبيرة ويحاول بحذر شديدٍ مع كثير من الدعامات نصبها على الطرف المنحدر من الشارع. انتقل هورلين إلى الطرف الآخر من الشارع، اتّكأ على حجرٍ، وراقب بانتباه تحركات العامل. كان العامل قد ثبّت السقالة الآن بوضع آمن، صعد وبدأ يقشر المِلاط فوق الباب الرئيس بغرض إنزال يافطة الحانة القديمة. ملأت هذه العملية الصناعيّ العجوز بالإثارة، لكنه أيضاً شعر بالألم، فقد تذكّر الأيام الخوالي، والكؤوس العديدة من النبيذ والخمر التي شربها تحت اليافطة التي تختفي الآن. ولأنه استذكر الماضي بشكل عام، لم يكتفِ بالفرح عندما لاحظ أن الذراع المعدنية كانت مثبتة بشدة إلى الحائط ممَّا جعل العامل يعاني لانتزاعها. مضت تحت تلك اليافطة الرثة أوقات مجنونة عدة. عندما بدأ العامل يشتم، ابتسم الرجل العجوز؛ وحينما قام العامل بالشدّ والدفع واللّي والطرق، وبدأ يتعرق، وكاد يسقط من السقالة، لم يكتف المراقب العجوز بالشعور بالرضا. قرر العامل أخيرًا النزول، وعاد بعد ربع ساعة بمنشارٍ حديدي. أدرك هورلين أن الشارة المبجّلة ستسقط الآن. قضم المنشار بصوت صارخ قضيب الحديد القوي؛ وما هي إلا لحظات وبدأ القضيب يترنح، ووقع أخيرًا مصدرًا صوت صلصلة ورنّة عالية لدى ارتطامه بالرصيف.

عَبَر هورلين الشارع. "عزيزي العامل" قال مستعطفًا إياه بتواضع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"أعطني هذا الشيء، لم تعد له قيمة الآن".

"لماذا؟ ومن أنت؟" سأله الرجل.

"أنا ابن مهنتك" أجاب هورلين بتوسّل، "والدي كان حدادًا، وكذلك كنتُ أنا في وقتٍ من الأوقات. ألا تعطيني إياها؟"

رفع العامل اليافطة، نظر إليها وقدّر، ثم قال "الذراع ما زالت جيدة، في وقتها كانت قطعة حِرفية جيدة، لكن إن أردت قطعة الصفيح فهي غير ذات فائدة لأحد".

نزع عنها الإكليل الأخضر الذي كانت معلقة به، وكان يقلل من توهجها فتبدو ذابلة نوعًا ما، ثم ناولها للعجوز. مضى الرجل العجوز بجائزته، ليخبئها في أعلى الأجمة بطمع غريب واستمتاع بفكرة تأملها لاحقًا. عادةً بعد المعارك الخاسرة قد يقوم القائد بإخفاء بعض التذكارات الصغيرة إلى أيامٍ وأمجادٍ أخرى. حينما عاد مجددًا للمكان ذاته، لمتابعة عمل النجارين، فاجأه مظهر البيت الذي تغير كثيرًا وبدا كئيبًا للغاية، هذا لأن الشمس في مقدمته قد اختفت تمامًا، ولم يكن هناك ما يحلّ مكانها سوى فتحة قبيحة في الجبس.

بعد عدة أيام، ودونما احتفال أو زينة من أي نوع، تم افتتاح مأوى الفقراء، فقير الأثاث. بضعة أَسِرّة تم وضعها، أما بقية الأثاث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكانت ضمن مبيعات المزاد. عدا أن داعمًا للخطة قام بتزيين غرف النوم الثلاث بلوحات لنصوص إنجيلية، محاطة بإطار من زهورٍ صغيرة رسمت على ورق مقوى. بالنسبة لمنصب المسؤولِ عن الملجأ، فلم يكن هناك الكثير من المتقدمين لشغله، فوقع الاختيار على السيد اندرياس سوبيرل، أرمل يعمل حائكًا، ويحظى بسمعة جيدة، أحضر معه نوله الخاص، واستمر في القيام بعمله هناك. فالمنصب لم يكن مربحًا، ولم يكن في نيته، في سنّه المتقدمة، الانضمام إلى إخوة الشمس.

وقتما جرى تعيين غرفةٍ لهورلين العجوز، باشر بأخذ دقيقة ليتفحّصها. وجدَ نافذةً تطل على الفناء الصغير، وبابين، سريرًا، وخزانة، وكرسيّين، وجرّة، ومقشة وجامعة فضلات؛ بالإضافة إلى ذلك أيضًا، رفاً في الزاوية عليه مشمع، وُضع عليه كأس، وحوض من القصدير، وفرشاة ملابس، ونسخة من الإنجيل. تلمّس فراش السرير، ثم جرب فرشاة الملابس على قبعته، رفع الكأس والحوض ليفحصهما على الضوء، وقعد بقصد الفحص على الكرسيين، فقرر أخيراً أن كل شيء مرضٍ وعلى ما يرام. وحدها العبارة المؤثرة التي كانت على الحائط لم تلقَ استحسانه، تأمّلها لحظةً بازدراء، وقرأ الكلمات "يا أولادي الصغار: أحبّوا بعضكم بعضًا (4)" فهزّ رأسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتّ باستياء. أنزل الشيء عن الحائط وبعناية بالغة وضع يافطة "الشمس" في مكانه. القطعة الوحيدة من ممتلكاته التي أحضرها معه إلى مقامه الجديد. لكنه وبمجرد أن انتهى من ذلك، دخل المدير، وانتهره لكي يُعيد العبارة إلى مكانها. كان سيأخذ الشمس القصديرية معه ويرميها خارجًا، إلا أن كارل هورلين تشبث بها بشكل يائس، مؤكِّدًا حقه في امتلاكها، وفي النهاية أخفى غنيمته، وهو ما زال يدمدم، تحت سريره.

الحياة التي بدأت في اليوم التالي لم توافق توقعاته، ولم تكن لتسعده على الإطلاق. كان عليه الاستيقاظ في السابعة صباحًا، ثم يقوم ليتناول قهوته في جناح الحائك، ثم يتولى ترتيب سريره، وينظف طست غسيله، ويلمّع حذاءه ويرتب غرفته بشكل عام. وفي الساعة العاشرة ستنتظره قطعة من الخبز الأسمر، ينطلق عقبها العمل القسري الذي كان يروّعه: كومة ضخمة من الخشب أُلقيت في الباحة، ليتم نشره وتقطيعه.

أما وأنّ الشتاء لم يكن ليحلّ قريبًا، أخذ هورلين كامل وقته مع الخشب. بحرص وبطء وضع قطعة الخشب في مكانها، ثم عدّل موضعها بدقة أكبر، وتطلّع إليها وهلةً ليرى من أين عليه أن يبدأ بنشرها، من الوسط أو اليمين أو اليسار. بعد ذلك حمل المنشار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالدرجة نفسها من العناية، وأعاد وضعه من جديد، بصق على يديه وحمله مجددًا. قام بثلاث أو أربع ضربات بالمنشار، قاطعًا نصف بوصة في عمق الجذع، ثم سحب المنشار وتملّى فيه دقيقة، شدّ على صامولته، ليصير أحدّ، رفعه إلى الأعلى وعاينه وهلة، ثم جرّ زفرة عميقة واستراح بعض الوقت. ما لبث أن عاد ليقطع بضع بوصات أخرى حتى أحس بحرارة خانقة، فتوقّف ليخلع معطفه. تمت العملية ببطء واستغراق، بدأ بعدها بالبحث بعض الوقت عن مكان نظيف يضع معطفه فيه. ما إن استودعه بمكان مرتب حتى باشر بالقطع مرة أخرى، لكن ليس وقتًا طويلًا؛ فالشمس قد ارتفعت فوق السطح وسطعت مباشرة في وجهه، وهذا ما استدعى منه نقل الحامل والمنشار، كلٍّ على حدة، إلى مكان آخر في الظل. هذا الجهد البدني جلب التعرق، ففتّش عن منديله ليمسح جبينه. لم يكن في جيب بنطاله؛ تذكّر أنه يحتفظ به في معطفه؛ فتمشّى إلى حيث وضع المعطف وبَسَطهُ بتأنٍّ، فتّشه فوجد المنديل الملوّن، أخرج المنديل، مسح العرق، ونظّف أنفه، ثم وضع المنديل جانبًا، طوى المعطف بعناية فائقة، وعاد إلى حامل منشاره أكثر انتعاشًا. من هنا وصل إلى استنتاج مفاده أنه لربما كان ينشُر بزاوية شديدة الحدة، فطبّق طريقة جديدة على الجذع استهلكت المزيد من الوقت، وأخيرًا، وبعد كثير من الشخر، نجح في فصل الجذع إلى قطعتين. في تلك الأثناء أخذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جرس منتصف اليوم بالقرع من برج الكنيسة، لذا أسرع لارتداء معطفه، ووضع المنشار جانبًا، ودخل إلى البيت؛ ليتناول الغداء.

"أنت دقيق في مواعيدك، يجب عليّ أن أعترف لك بذلك" علّق الحائك. أحضرت الطاهية الحساء، وأتبعته ببعض الخس وشريحة من اللحم المقدد، وهورلين وَقَع على الطعام برغبةٍ شديدة.

بعد الغداء كان ينبغي مواصلة قطع الخشب لكنه امتنع بإصرار "أنا لست معتادًا على ذلك"، قالها بنبرة كسيرة وتمسّك بها: "لقد أُرهقت، وينبغي أن أستريح قليلًا". هزّ الحائك كتفيه قائلًا: "افعلَ مَا تريد، لكن لا ينبغي لرجلٍ لا يعمل هنا أن يتوقع أي عشاء في نهاية يومه، في الساعة الرابعة سيكون هناك خبز وعصير التفاح، إن أتممت تقطيع أخشابك، وإلا فلن يكون هناك شيء عدا الحساء في الليل".

خبز وعصير تفاح، ومشكلة عويصة تواجهه، تفكّر هورلين قليلًا. في النهاية، خرج والتقط المنشار مجددًا؛ وهو يرتعد لفكرة العمل في ساعات منتصف النهار الحارة، فترك كل شيء ملقىً كما هو في مكانه، وخرج إلى الشارع. عثر على عقب سيجارة على الرصيف ووضعها في فمه، وببطءٍ قطع قرابة الخمسين خطوة حتى مفترق الطريق، توقف ليلتقط أنفاسه، ثم قعد على جانب الطريق على العشب الوثير الدافئ وتطلّع إلى السطوح الكثيرة وصولًا إلى السوق، مختلسًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمحة إلى باطن الوادي حيث كان مصنعه القديم، حيث سيخصّص هذا المكان لأول زمرة من إخوة الشمس. المكان الذي سيُمضي فيه العديد من زملائه ومن سيخلفهم من بعدهم، أوقات العصر من أيام الصيف، وبعض الأصباح والأماسي أيضًا.

التنعُّم بشيخوخةٍ خاليةٍ من المشاكل والقلق، ذاك الذي كان يُمنّي نفسه به في ملجأ الفقراء، والذي بهت في ذلك الصباح تحت ضغط العمل المضني حتى غدا كسرابٍ شفيف، ها هو يعود إليه بالتدريج. سَكَن قلبُه إلى إحساسِ متقاعدٍ ضمِن لبقية حياته أمانًا من القلق والجوع والتشردِ فتمدّد مسترخيًا على المرج، متحسسًا دفء الشمس المبهج وهو يسقط على بشرته الذاوية. تأمّل أعماله السابقة وحظه العاثر، وانتظر دون ملل قدوم أحدهم ليشعل له عُقب سيجارته. تناهت إلى مسمعه طرقاتٌ صاخبةٌ من ورشةٍ ما، ورنّةٌ بعيدة لسندانٍ في ورشة حدادة، وهديرٌ خافتٌ لعربةٍ بعيدة تهادى إلى عليائه، مع غلالة من غبار الطريق ودخان خفيف متصاعد من شتى أحجام المداخن، مبلغةً إياه بأن الناس في أسفل المدينة يكدحون ببسالةٍ ويعرقون، بينما يجلس كارل هورلين بسلامٍ غير مكترث على عرشه على مسافةٍ محترمةٍ من هذا كله.

قرابة الساعة الرابعة دخل بهدوء إلى غرفة الحائك الذي كان يحرك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوله بانتظام إلى الأمام والخلف. مع ذلك، انتظر وهلة ليرى إن كان ما يزال هناك بعض الخبز وعصير التفاح، لكن الحائك لم يزد سوى أن سخِر منه ضاحكًا وطرده. عاد خائبًا إلى مركز رصده مهمهمًا. هناك أمضى زهاء ساعة أو يزيد في ما يشبه نصف إغفاءة، ثم راقب هبوط المساء على الوادي الضيق. الأجواء ما زالت دافئة ومريحة في الأعلى، إلّا أنّ مزاجه المبتهج بدأ بمغادرته شيئاً فشيئًا: فمع كسله، إلا أنه بدأ يشعر بملل مريع لأنه لا يقوم بأي عمل، وعاد بذهنه إلى الوجبة الخفيفة التي ضيّعها. تخيل كأسًا طويلةً من عصير التفاح أمامه، كأساً مدورة باردة، صفراء فوارة تعطّرها رائحة أعشاب زكيّة. تخيل كيف كان سيرفعُها، تلك الكأس المدورة الباردة، ويزدرد رشفة معتبرة تطفئ عطشه في البداية، ثم سيحتسي رشفاتٍ مقتصدة بعد ذلك. أطلق تنهيدة غاضبة كمن يوقَظُ قسراً من حلمٍ جميل، وصوَّب غضبه نحو المدير قاسي القلب، الحائك، البخيل التعس، القصير الممتلئ، المستبد، الذي باع روحه، اليهودي المؤذي. بعد أن أطلق ما يكفي من سيل شتائمه على المدير، بدأ يشعر بالأسى على نفسه، ودخل في نوبة حزنٍ دامع؛ إلا أنه في النهاية عقد نيته على العمل في اليوم التالي.

لم ينتبه كيف صار الوادي شاحبًا، وامتلأ بظلال ناعمة، وكيف أن الغيوم اكتست صبغة وردية، كان كمن كُفّ بصره عن الألوان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعتدلة اللطيفة للسماء في المساء، والزرقة الغامضة التي ظهرت فوق الجبال البعيدة. لم يرَ سوى كأس العصير الضائع، والعناء الذي ينتظره في الغد، وقسوة حظه. كانت تلك هي الأفكار التي تخطر في باله عادةً حينما يُمضي اليوم دون شراب. أما حصوله على كأسٍ أشدّ من عصير التفاح فذلك شيء لم يكن ليجرؤ على التفكير فيه.

عاد إلى البيت منحنياً فاتر الهمة في وقت العشاء، وجلس منكّدًا في مقعده على الطاولة. كان أمامه حساء وخبز وبصل، فتناولها وهو متجهّم حتى أفرغ طبقه؛ إذ لم يكن هناك أي شيء ليشربه. جلس مغمومًا بعد الانتهاء من وجبته لا يدري ما عساه يصنع؛ لا شيء ليشربه، لا شيء ليدخنه، ولا أحد ليثرثر معه! فذاك الحائك كان يعمل بجدّ تحت ضوء المصباح، ولا يعيره أي قدرٍ من انتباه.

جلس هورلين نصف ساعة على الطاولة الفارغة، يستمع لطقطقة نول الحائك سوبيرل؛ ومحدّقًا بالشعلة الصفراء للمصباح المتدلي، إلى أن انزلق في هاوية برَمِه، وشفقته على ذاته، وغِلّه، وبُغضه، وحقده الذي لم يسع إليه ولم يجدْ سبيلًا للخروج منه. بالنتيجة تعاظم غضبه المكتوم ويأسه أكثر من طاقته على الاحتمال. رفع قبضته وهوى بها على الطاولة، ملقيًا شتيمةً ألمانيةً لاذعة.

"هيه أنت! ما مشكلتك؟" قال الحائك وهو يدنو منه: "الشتائم ممنوعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيثما أكون".

- وما الذي يجوز لي فعله بحق الشيطان؟

- آه، هل تجد المساء طويلًا؟ اذهب إلى السرير إذن.

- ها أنت تبدأ مجددًا، الأطفال الصغار هم من يُرسلون إلى النوم في وقت محدد، لا أنا.

- إذًا سأجد لك شيئًا تعمله.

- عمل؟ لقد ذهبت بعيدًا في طغيانك يا نخّاس العبيد العجوز.

- اهدأ! تعال، فهناك... هناك شيء لكَ لتقرأه.

أنزل مجلّدين من الأرفف المزينة بشكل خفيف والمثبتة في الجدار، وعاد إلى عمله. لم تكن لدى هورلين رغبة في القراءة، إلا أنه تناول أحد الكتب وفتحه. كان تقويمًا سنويًا، بدأ بالتمعن في الصور. كانت الصورة الأولى لامرأة متأنقة بجسدٍ مثالي استُعملت لصفحة الغلاف، بقدمين حافيتين وجدائل مرسلة سوداء. تذكر هورلين أن لديه قرمة من قلم رصاص في جيبه، أخرجه وبلله في فمه، ورسم ثديين مدورين عارمين على صدرية المرأة، وواصل التشديد عليهما، مبللًا القلم مرة تلو أخرى، حتى كادت الورقة تتمزق. ثم قلب الصفحة ليرى باستحسان أنَّ طبعة عمله الفني قد نسخت على أكثر من صفحة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لاحقة. الصورة التالية التي انقض عليها أظهرت قصة خرافية صوّرت شخصية كوبولد(5) أو روحًا شريرة بعينين شيطانيتين وشاربٍ شرسٍ وفمٍ كبيرٍ مفتوح. بحماسة مفرطةٍ بلل العجوز قلمه مجددًا وكتب تحت الوحش بحروف كبيرة مقروءة "هذا هو الحائك سوبيرل، المدير".

كان ينوي المرور على كامل الكتاب فيشوهه ويدنسه بتمامه. لكن الصورة التالية استوقفت انتباهه، فنسي نفسه وهو يتفحصها. كانت تصوّر انفجار مصنع، وتحوي كتلة هائلة من الدخان الكثيف والنيران، حولها وفوقها أجسادٌ وأشلاء بشرية، وطابوق، وملاط، وألواح وعوارض خشبية متطايرة في الهواء. أثار ذلك اهتمامه، فحاول إعادة بناء القصة، وبشكل خاص مشاعر الضحايا في اللحظة التي قذفوا بها في الفضاء.

Telegram:@mbooks90

كان هناك الكثير من الفتنة والإشباع له في ذلك، ما أبقاه عاكفًا على الصورة مطوّلًا، فمع أنانيته، إلا أنه ينتمي إلى جملة الطوائف الذين ينشغلون بمصائر الآخرين، خاصةً عندما تُصوّر بشكل صادم، أكثر من مصيرهم هم.

لمّا أعمل مخيلته بشكل وافٍ على تلك الصورة المؤثرة، مضى يقلب الصفحات، وما لبث أن وصل إلى صورة أخرى استرعت اهتمامه وإن على نحوٍ مغايرٍ كليًّا. كانت رسمة زاهية ومبهجة: سقيفة جميلة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدلّت من فروعها الخارجية نجمةٌ مثل علامة. وعلى النجمة حطّ عصفور منتفش الرقبة مفتوح المنقار: عصفور صغير مغرّد. في داخل العريش تظهر طاولة ريفية غير مشذبة، وجماعة صغيرة من الشبان: طلبة أو عمال جائلون، يتسامرون ويشربون نبيذًا فاخرًا من زجاجات بهية المنظر. في أحد أطراف الصورة تُشاهَد أنقاض قلعة ترتفع أبراجها إلى عنان السماء، وفي الخلفية منظر طبيعي رائق ممتد، يشبه وادي الراين (6)، حيث يبدو نهر وقوارب وتلال بعيدة. المعربدون كانوا جميعًا شباناً وسيمين، جذلين ظريفين، ناعمي الوجه أو بلحىً خفيفة، ومن الجلي أنهم كانوا يتغنّون بأنخابهم عن الصداقة والعشق، عن الراين العتيد وسماء الرب الزرقاء.

أول وهلة، ذكّرَ الرسمُ الرجلَ الوحيدَ المنكّدَ، الذي يتطلّعُ إليه، بأيامه الطيبة، وقتما كان بوسعه هو أيضًا أن يطلب زجاجة نبيذ وكؤوسًا من الشراب الفاخر. لكن اليقين الذي غلب عليه أنه لم يكن يومًا سعيدًا ولا طربًا صِنوَهؤلاء الشبّان، حتى منذ زمن طويل عندما كان خالي البال متنقّلا على الطريق مثل حدّاد جوّال. بهجة الصيف في السقيفة، ووجوه الشبّان المشرقة البشوشة أدخلته في حالة من الأسى والغضب. تساءل إن كان كل هذا من اختراع الرسام، مثالياً وخادعاً، أم أن هناك في الواقع وجوداً لسقيفة كهذه، ومثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هؤلاء الشبان المبتهجين والخالين من الهموم. وجوههم الباسمة عبّأته بحرقة الحسد؛ فكلما حدّق بالصورة أكثر، زاد شعوره بأنه ينظر من نافذة صغيرة إلى عالم آخر، إلى مدينة أكثر سماحة، وحياة أكثر حرية، ورجال أكثر دماثة ممن التقاهم في حياته كلها. لم يدْرِ إلى أي مملكة غريبة كان يحدّق، ولا كانت مشاعره مثل أولئك الذين يتذوقون الشعر، فتكون متعتهم في جمالية التصوير النابع من التدبّر بضآلة ووحشية الواقع المعاش، المؤدي إلى الأسى الشفيف والتوق العذب. لم يكن يعرف كيف له أن يستخلص عذوبة من أضراب هذا الشجن، فما كان منه إلا أن أطبق الكتاب، ثم رماه بحنقٍ على الطاولة، فتمتم بتكلّفٍ "طابت ليلتك"، وصعد إلى غرفته، إلى حيث يسقط ضوء القمر على السرير والأرض والخزانة وينعكس في الحوض الممتلئ أيضًا. السكون العميق، في تلك الساعة المبكرة من الليل، وضوء القمر المُطْمئن، وفراغ الغرفة التي تبدو أوسع من مجرد غرفة نوم، أيقظت في العجوز الفظ شعورًا لا يُحتمل بالوحدة، لم يتمكن من الإفلات منها إلا بعد العديد من الشتائم المغمغمة وبعض الوقت قبل دخوله إلى عالم الأحلام.

تلت ذلك أيام قام فيها بنشر الخشب وتمتع بالمرطبات المنعشة بعد الظهر، وأيام أخرى بقي فيها متبطّلًا واستغنى عنها. كثيرًا ما كان يجلس هناك إلى جانب الطريق، معبأً بأفكار حاقدة خطيرة، باصقًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الأسفل تجاه المدينة بكل المرارة التي ملأت قلبه الثائر. الشعور الذي أمِل به بأن يرتاح في ملاذ آمن، فشل في معاودة زيارته؛ وبالمقابل، أحسّ بأنه يُباع ويتعرض للخيانة، وبات سيّان إثارة موقف عنيف مع الحائك أو احتضان مشاعر الخيبة والقرف والملل سرًّا في قلبه.

في تلك الأثناء، انقضت المدة التي كان يُسدد بها إلى المجلس البلدي رسم استضافة متقاعد في بيت خاص. وفي يومًا ما قدِم إلى "الشمس" نزيل ثانٍ، صَانع الحبال لوكاس هيلار.

بينما جعل فشل الأعمال من هورلين مدمنًا على الشراب، كانت الحالة على النقيض من ذلك مع هيلار، فهو لم يسقط فجأةً، مثل سقوط الصِّناعي من علياء المترفين المتبجحين، إنما هبط بأناة متدرجًا، مع الفواصل والوقفات اللازمة، من حرفيٍّ استثنائي إلى متشرد وضيع. زوجته الطيبة المثابرة لم تتمكن من إنقاذه، بل كان الصراع اليائس ثقيلًا عليها، على أنها بدت أقوى منه، إلا أنها توفيت، بينما تمتع زوجها عديم الفائدة بالصحة والعافية، فواصَل لعب دور السفيه بضع سنوات أخرى، ولاحقًا، بعد أن تحطّم وبات عالة على سواه، مضى متراخيًا، دونما أي انحسار بادٍ في عافيته نحو شيخوخة نضرة. وبالتأكيد كانت قناعته بأن ما حل بزوجته ما هو إلا سوء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حظ، مثلما جرى مع عمله في صنع الحبال، وأن موهبته وأداءه كانا يستحقان حظًّا أفضل.

انتظر هورلين وصول هذا الرجل بلهفة بالغة، وهو الذي تنهشه الوحدة يوميًا حتى أنهكته تمامًا. ومع ذلك، فعندما حضر هيلار، تمنّع الصناعيّ السابق وبالكاد تعاطى معه، حتى أنه تذمر من وضع سرير هيلار معه في نفس الغرفة، مع أنه كان مبتهجًا بذلك في سرّه.

بعد العشاء، ولأن زميله بدا نزّاعًا إلى المشاكسة، التقط صانع الحبال كتابًا وشرع في القراءة. جلس هورلين قبالته ملقيًا صوبه من حين لآخر نظرات متقطعة من المتابعة المرتابة. حتى أنه عندما لم يستطع القارئ تمالك نفسه من الضحك على أمر ظريف، كان الآخر متشوقًا لسؤاله عن ماهيته. إلا أنه في ذات اللحظة التي رفع بها هيلار بصره عن الكتاب، ليشارك الطرفة كما بات واضحًا، تصنّع هورلين تعبيرًا متجهمًا على وجهه وتظاهر بأنه مستغرق كليًّا في تأمل ذبابة كانت تزحف عبر الطاولة.

أمضيا الأمسية على هذا المنوال، الأول يقرأ، ويرفع بصره من حين لآخر كما لو كان مستعدًا لبدء حوار، والثاني يراقبه بتمعّن، ليصرف نظره عنه بغطرسة في اللحظة التي يرفع زميله بها عينيه. انهمك المدير في عمله بعيدًا عنهما إلى وقتٍ متأخرٍ. وجه هورلين يزداد تجهمًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعدوانية، مع أنه كان مسرورًا في الواقع لأنه لن يبقى وحيدًا في غرفته بعد الآن. عندما أعلنت الساعة العاشرة، قال المدير: "بوسعكما الآن الذهاب إلى السرير أنتما الاثنان". نهض الاثنان وصعدا إلى الأعلى.

بينما كانا يخلعان ثيابهما ببطء وتوتّر في الغرفة خافتة الإضاءة، قرر هورلين أن الوقت قد حان لبدء تحقيق في خصال زميله في البؤس، والذي لطالما رغب في وجوده.

"حسنًا، بتنا اثنين الآن" قالها وهو يرمي صدريته على الكرسي.

"نعم" رد هيلار.

"يا لها من زريبة خنازير هنا"! تابع هورلين.

- أوه، حقًا!

- حقًا؟ أنا وحدي من يعرف! ولكن سيُبعث فيها القليل من الحياة الآن، نعم.

"أخبرني" سأل هيلار، "هل تخلع قميصك في الليل أم تبقيه؟"

- أخلعُهُ في الصيف.

خلع هيلار قميصه هو أيضا، وتمدد على السرير المصرصر، وما لبث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن بدأ في الشخير بصوت عالٍ. إلّا أن فضول هورلين لم يستنفد بعد.

- هل نمت يا هيلار؟

- لا.

- ثمة وقت طويل... أخبرني، أنت صانع حبال، أليس كذلك؟

- كنت. العمدة في صنع الحبال.

- والآن؟

- والآن... لا بد أنك تتوقعَ الكثير مني حتى تسأل مثل هذه الأسئلة السخيفة.

- أوه، لا حاجة بك لأن تصير فظاً، أيها العجوز الأبله! لعلك كنت أستاذاً في صنع الحبال، لكن ذلك ليس بالأمر العظيم.

- مُحدّثك كان صناعيًّا، كنت أملك مصنعًا، هل تفهم؟

- لا داعي للصراخ، فأنا أعرف ذلك مسبقًا، وبعد ذلك، ماذا صنعت؟

- ماذا تعني، ببعد ذلك؟

- أنت تعرف جيدًا ما أعني... في السجن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أطلق هورلين ضحكة بصوت يشبه الثغاء، "أوهٍ، وأحسبك من جنس الأتقياء. أمنشدُ كنيسةٍ أنت؟"

- أنا؟ لم يبقَ إلا هذا! لا لستُ متدينًا، ولكنني مع ذلك لم أزر السجن يومًا.

- لن تحسّ بأنك في البيت هناك، فمعظم الناس هناك أصحاب طيبون.

Telegram:@mbooks90

- يا إلهي! أصحاب طيبون على شاكلتك؟ أنت محق، لا بد وأن الأمر لن يروق لي.

- بعض الناس لا يستطيعون منع أنفسهم من الحديث، سواء علموا ما يتحدثون بشأنه أم لا.

- هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه.

- أوه، دع عنك الآن، كن رجلًا طيبًا! ما الذي دفعك لترك صناعة الحبال؟

- آآه، لا تزعجني! العمل كان لا بأس به، لكن الشيطان اقتحمه بشكل ما. كان الخطأ من زوجتي.

- زوجتك؟ هل كانت تعاقر الخمر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تلك ستكون مبالغة كبيرة. لا، أنا الذي قمت بالشرب كله، كما هي الحال عادة، وليست زوجتي. لكنها كانت شريكة في الخطأ أيضًا.

- حقاً! وماذا فعلَت؟

- لا تكثر من الأسئلة.

- ألديك أطفال؟

- صبي واحد. في أميركا.

- شاب حصيف. المرء أفضل حالًا هناك.

- يخيل إليك ذلك. لكنه دائمًا يكتب لي طلبًا للمال، الوغد! هو متزوج أيضًا. حين رحل قلت له: فريديل، أتمنى لك حظاً طيباً، اعتنِ بنفسك، وافعل كل ما يحلو لكَ، لكن إن تزوجت فستتورط في المشاكل، حسنًا، لقد أوقع نفسه فيها الآن. بالمناسبة، هل سبق لك الزواج؟

- لا، لكن الرجل يمكنه الوقوع في المشاكل دون زوجة، ألا ترى ذلك؟

- ذاك يعتمد على الرجل. لولا زوجتي الحمقاء لكان لدي اليوم متجري الخاص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هممم!

- هل قلت شيئًا؟

كان هورلين صامتًا، ويتظاهر بأنه نائم. إذ داخَلَه هاجس بأنه لو أتيح لصانع الحبال الاسترسال نوعًا ما في أمر زوجته، فلن تكون هناك نهاية.

- "نم إذن، أيها الغبي" صاح هيلار.

لكن الآخر لم يسمح له باستدراجه، ومضى يجر أنفاسًا عميقة إلى أن غطّ في النوم.

صبيحة اليوم التالي، كان صانع الحبال أول من استيقظ، ففي الستين من عمره لم يكن يحتاج للكثير من النوم. استلقى نصف ساعة محدّقًا بالسقف الأبيض. ثم قام، مع أن حركته بدت متخشبة في اليوم السابق، ونهض من سريره بخفة ورشاقة نسيم الصباح، وتسلل حافي القدمين دون أن يُحدث صوتًا إلى سرير هورلين وبدأ يتفقد ثيابه. فتّشها مليًّا ولكنه لم يجد سوى قرمة القلم الرصاص في جيب الصدرية فاستولى عليه بعد أن فحصه، وثقب صغير اكتشفه في جورب زميله اليسار، فقام بتوسعته باستعمال إبهاميه حتى صار واضحًا. زحف بعد ذلك بهدوء عائدًا إلى سريره الدافئ ولم يتحرك إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن استيقظ هورلين، فنهض وقام بإلقاء بضع قطرات من الماء على وجهه. حينها قفز برشاقة وارتدى بنطاله. ولأنه لم يكن متعجّلًا في إنهاء تسريحته، فعندما أشار عليه الصناعيّ السابق بأن يُسرع، أجابه قائلًا: "أوه، انزل أنت، سأوافيك بعد دقيقة". وهكذا فعل هورلين، فزفر هيلار تنهيدة راحة. ثم قبض على الحوض وقذف الماء النظيف من النافذة، لأنه كان يعاني ذعرًا من الاغتسال. عندما تجنب هذه العملية البغيضة، بات مستعدًّا لحث الخطى بالنزول والحصول على قهوته.

تسوية الأسرّة، وترتيب الغرفة، وتلميع الأحذية، عُكف عليها بعد الإفطار، وبالطبع دون عجلة لا داعي لها، وبكثير من الوقفات لتجاذب أطراف الحديث. وجد الصناعي هذه المهام أسلس وألطف حين تؤدى مع رفقة عنها وهو وحيد؛ إذ بدأ يحس بمشاعر ودية تجاه رفيقه، وبدأ يهنّئ نفسه على العيش المشرق والمبتهج. حتى العمل الذي لا مفرّ منه بدا أقل ترويعًا من قبل، وعندما استدعاهما المدير إلى الفناء، نزل مع هيلار، وإن لم يكن حثيثًا، ولكن مع قسمات بشوشة نوعاً ما.

Telegram:@mbooks90

على ثورات الحائك الانفعالية، وبذله قصارى جهده للتغلب على انطفاء حماسه، إلا أنه لم يطرأ الكثير من التغيّر على كومة الخشب في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسابيع القليلة الماضية. فما زالت عريضة ومرتفعة كما كانت، كما لو أن بها بركة دهنة زيت الأرملة(7)، وكومة الأخشاب المقطوعة، بالكاد أتمت دزينتين، ملقاة في زاوية، كما لو أنها آثار لعبة أطفال بدأت جامحة ثم سرعان ما ألقي بها جانبًا.

الآن بات على كلا العجوزين العمل عليها، ومن الضروري وضع ترتيب لعملهما، فلم يكن هناك سوى قاعدة منشار واحدة ومنشار واحد. بعد القليل من حركات الاستعداد، والزفرات، والملاحظات، استطاعا التغلب على نفورهما الداخلي وشرعا نحو العمل. إلّا أنه، ولسوء الحظ، تكشّف الآن لكارل هورلين بأن بشائره لم تكن إلّا أحلامًا ضائعة، حيث فضح أسلوب العمل الاختلافات الجوهرية بينهما.

كان لكلٍّ منهما طريقته الخاصة في التشاغل. وفي كليهما، إلى جانب الكسل المتأصل المفرط، هناك أثرة من الضمير تدفعهما بخجل إلى العمل؛ لم يرغب أي منهما في العمل حقيقة، لكنهما أرادا أن يُظهرا لنفسيهما على الأقل أن لهما فائدة في هذا العالم. حاولا الوصول إلى تلك النتيجة بطرق شتى، وفي هذين الرجلين التالفين عديمي الفائدة، اللذيْن كان مقدّرٌ لهما على ما يبدو أن يكونا أخوين، ظهر تفاوت غير متوقع في المواهب والنزعات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هورلين كان محترفًا في وتيرة يبدو بها منشغلًا على الدوام، ولو أنه لا يقوم بشيء مطلقًا. فمجرد فعل صغير كالإمساك بشيء ما يغدو معه مناورة في غاية التطور، نظرًا إلى الطريقة التي يضم بها إلى تلك الحركة العادية قدرًا ملحوظًا من التلكؤ. وعلاوة على ذلك، فبين فعلين صغيرين، كالإمساك بالمنشار وتحريكه، قام باختراع واتّباع سلسلة طويلة من التفاصيل المعترضة الصغيرة عديمة الفائدة، وكان حريصاً على إبقاء العمل الحقيقي أبعد ما يكون عن جسده عبر هذه التفصيلات الزائدة. وهكذا بدا مثل مجرم محكوم يفتعل الأشياء بالإضافة إلى العمل المنوط به تنفيذه، والعناية به قبل الذهاب لملاقاة العقوبة الحتمية. وبذلك كان محترفًا في حشو الساعات المطلوبة بحركات متدفقة يسبغ عليها ادعاء الجهد النزيه، دون إنجاز أي شيء يمكن أن يطلق عليه عمل حقيقةً.

كان يأمل أن يتفهمه هيلار ويدعمه بهذه الخصوصية وهذا التطبيق، إلا أنه وجد نفسه الآن خائب الرجاء. فصانع الحبال، تبعًا لخواص شخصيته، اتّبع طريقة معاكسة تمامًا. إذ شق طريقه بإصرار متشنّج وصولًا نحو حنقٍ مزبد، فهرع إلى عمله كما لو أنه لا يقيم وزنًا للحياة، واستشاط غضباً عليه إلى أن سال العرق وتطايرت الشظايا. إلا أن ذلك لم يدم إلا بضع دقائق، بعدها سقط منهكًا. بيد أنه بذلك أرضى ضميره، واستراح ممدّدًا دون حراك إلى أن عاوده الهياج مرة أخرى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقام مجددًا يُرغي ويُزبد إلى مهمته. أما نتائج هذه الوتيرة في العمل فلم تتخطَّ نتائج الصناعيّ بشكل ملحوظ.

تحت هذه الظروف كان مقدرًا لأي منهما أن يشكّل ضررًا أو عائقًا للآخر، فطريقة هيلار المتعجّلة العنيفة، بدأت بمشكلة، واستفزت مشاعر الصناعي المكبوتة، في حين أن مظهره المتثاقل والمستمر في تمثيل العمل أثار اشمئزاز صانع الحبال. عندما دخل الأخير في إحدى نوبات غيظه على الشغل، تراجع هورلين بضع الخطوات كما لو أنه فزع، ناظرًا باحتقار إلى زميله وهو يهوش وينوش، وبالكاد يلتقط أنفاسه إلا ليعود إلى توبيخ هورلين على كسله.

"انظروا إليه" صاح به، "انظروا إلى هذا المتشرد الكسول عديم الجدوى! أنت تحب رؤية الآخرين وهم يقومون بعملك، أليس كذلك؟ آه، بلى! السيد مالك المصنع، أظنك قادرًا على تبديد أربعة أسابيع في نشر جذع واحد!".

لا العدائية ولا الحقيقة في هذا التوبيخ كانت كافية لتثير هورلين كثيراً، لكنه لم يكن ليدع هيلار ينال منه. فحالما أُنهك صانع الحبال، وتوقف ليستريح، ردّ عليه اتهاماته، مستخرجًا خيارات عدة من مصطلحات لاذعة لنعته، مهددًا بدقّ رأسه السميك بالمطرقة إلى أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصير في حالة لا يفرّق بها بين خريطة العالم وصحن البطاطا المهروسة، ولا يميّز الحواريين الاثني عشر من عصابة قطّاع الطرق.

لم يصل الأمر، بالطبع، إلى حد تنفيذ هذه التهديدات، إذ لم تكن إلا تمارين بلاغية، ولم يتصورها أيّ من المتخاصمَين غير ذلك. من الآن فصاعدًا صارا يتّهمان بعضهما أمام المدير، إلا أن سوبيرل كان حكيمًا بما يكفي لرفض التدخل. "هيه، أنتما الاثنان" وأشار إليهما بالتناوب، "لم تعودا صبيين في المدرسة، وأنا لن أزج بنفسي وسط هذه المشادات. لا بد وأن يكون هنالك حد لكل هذا".

مع ذلك عاد كلاهما للشكوى من الآخر، كلٌّ على حدة. ذات يوم عندما لم يحصل الصناعي على قطعة اللحم على الغداء، وعندما طلبها في وقفة تحدٍّ، لم يزد الحائك على أن قال: "لا تنفعل، يا هورلين؛ فهناك عقاب من حين لآخر. فهيلار نقل لي ما كنت تعيده عليه هذا الصباح". صانع الحبال كان مبتهجًا لهذا الانتصار غير المتوقع، لكن الآية انقلبت على العشاء، إذ لم يحصل هيلار على الحساء، هكذا أدرك الخبيثَان أنهما غُلبا في لعبتهما. ومنذ ذلك الوقت انقطعت النميمة.

لكن فيما بينهما لم يكن أحدهما ليمنح الآخر سلامًا دائمًا. إلا أنهما بين الفينة والأخرى، حين يستلقيان جنبًا إلى جنب على المرج إلى جانب الطريق ويمدّان رقبتيهما المجعدتين خلف العابرين، تنبثق روحٌ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخوية مؤقتة بينهما، بينما يناقشان تقلّبات الدنيا، أمرُ الحائك، ونظام رعاية الفقراء، والقهوة المذِقة(8) البائسة في المأوى، أو عندما يتشاركان ما في جعبتهما من خزين أفكار ضحلة، والتي كانت في حالة صانع الحبال تتضمن آراءً قطعيةً عن سيكولوجية النساء، ومع الصناعي ذكريات من رحلاته وخططه الغريبة لمضاربات مالية على نطاق واسع.

"حسنًا، عندما يتزوج الرجل..." هكذا يستهلّ هيلار دائماً. أما هورلين، عندما يحين دوره، فسيفتتح بالقول "لو أنني أعرف أي شخص يمكنه أن يقرضني ألف مارك..." أو "في وقت ما عندما كنت في سولينغين...". كان عِمل هناك ثلاثة أشهر قبل عدة سنوات، إلا أنه من العجيب كثرة الحوادث التي مرّ بها أو مرّت عليه أثناء تلك الفترة في سولينغين.

عندما كانا يستنفدان ما لديهما من أحاديث، يمصّان غليونيهما الفارغين في صمت، يطويان ذراعيهما على رُكبهما الهزيلة، ويبصقان في نوبات متقطعة غير منتظمة على الطريق، ويحدقان لما بعد أشجار التفاح الملتوية الشائخة إلى الأسفل حيث المدينة التي نبذتهما، والتي حمّلوها، لحماقتهما، مسؤولية حظهما العاثر. آنئذٍ تملكتهما الكآبة، فيطلقان الزفرات، ويقومان بإشارات بأيديهما ملؤها الإحباط،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويدركان أنهما عجوزان مخدوعان. هكذا على الدوام إلى أن ينقلب غمّهما إلى غلّ، وهذا ما كان يستغرق نصف ساعة عادة. ثم يلي ذلك، كقاعدة ثابتة، أن يفتتح لوكاس هيلار الحفلة، بادئًا بمشاكسةٍ طفيفة.

"فقط انظر إلى الأسفل هناك" كان يصرخ مشيرًا إلى الوادي.

- ماذا هناك؟

- لست بحاجة لسؤالك، أنا أعرف ما أرى.

- إذن، ما الذي تراه بحق الجحيم؟

- أرى مصنع الأسطوانات الذي كان باسم هورلين وشويندلمير، أما الآن فيُدعى دالاس وشركاؤه، رجال أثرياء كما قيل لي، أثرياء!

"أوه، اذهب إلى الشيطان"، زمجر هورلين.

- شكرًا لك!

- هل تريد أن تجعل مني محتالًا؟

- لا حاجة لجعلك واحدًا!

- يا عامل الحبال العجوز القذر!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا دجاجة السجن!

- أيها السكير الخرف.

- لا سكير سواك! ولا فضيلة لك تخوّلك الإساءة للناس المحترمين.

- سأحطم لك نصف دزينة من أسنانك.

- وأنا سأُخلّفك أعرج، يا صديقي المرموق. يا مفلس!

عندها يكون العراك قد احتدم. وحين يستنفدان كل الشتائم المألوفة في المنطقة، تعمل مخيلة الوغدين لابتكار شتائم جديدة بالغة الصفاقة، إلى أن ينتهي هذا الرصيد، فيعود ديكا المصارعة إلى البيت مترنحين وحانقين.

ما كان لأحد منهما أي أمنية أعز من الانتصار على الآخر وإشعاره بتفوقه. لكن وإن كان هورلين أشد ذكاء، فصانع الحبال كان أكثر مكرًا. وطالما لم ينحز الحائك إلى أي طرف، فلم يستطع أي منهما ادعاء النصر على الآخر. كلاهما سعيا بحماسة للحصول على موقع يمنحهما اعتبارًا مميزًا في البيت، واستنزفا في سبيل ذلك الكثير من الطاقة، واليقظة، والتفكير، والعناد، التي لو استعمل أيّهما نصفها في الوقت المناسب، لحافظ على زورق حياته طافيًا عوضًا عن أن يصير من إخوة الشمس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

في هذه الأثناء، بدأت كومة الخشب المكدس في الفناء تتناقص ببطء. وما تبقى منها تُرك لوقت آخر، واستُعيض عن النشر بأعمال أخرى. فاشتغل هيلار أحيانًا عامل في حديقة العمدة، وهورلين عمِل تحت نظر المدير في غسل سلطة الخضار، وتنقية العدس، وتقشير الحبوب وما شاكلها؛ مهام لم تكن تتطلب منه أن يجهد نفسه، وأن يشعر في الوقت نفسه بأنه ذو فائدة. في ظل هذه الظروف بدا وأن البغضاء بين الأخوين تلتئم ببطء، فهُما لم يعودا يعملان مع بعضهما طوال اليوم، وفي ساعات فراغهما كان لدى كل منهما الكثير مما يشتكيان منه أو يخبران عنه. إلا أن كل منهما تخيل أنه تم اختياره لعمله تبعًا لمؤهلاته الخاصة والتي أعطته نوعًا من الأفضلية على الآخر. وهكذا مضى الصيف، واصفرّت أوراق الأشجار، وانقضت الأمسيات التي يمكن البقاء فيها حتى التاسعة مساء دون حاجة إلى الإضاءة.

Telegram:@mbooks90

في مثل ذلك الوقت، وبينما كان الصناعيّ يجلس وحيدًا ذات ظهيرة على عتبة الباب، متثاقلًا يتأمل الدنيا من حوله، رأى شابًّا يهبط من الهضبة ويسأل عمّن يدلّه الطريق إلى دار البلدية. تعامل هورلين معه بكياسة بدافع الملل المحض، فسار معه نحو شارعين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأجاب عن أسئلته، ولقاء عنائه قدّم له الرجل لفافتي تبغ. طلب من سائق العربة القادمة شعلة، أشعل واحدة منهما، وعاد إلى مكانه الظليل عند العتبة، وبنشوة متّقدة استسلم للمتعة، للذّة افتقدها منذ زمن بتدخين سيجار طيّب. أما ما تبقّى منها فوضعه في غليونه ودخّنه إلى أن لم يبق منها شيءٌ سوى الرماد. في المساء، عندما عاد صانع الحبال كالعادة مع الكثير ليرويه عن عصير الإجاص والخبز الأبيض والفجل الذي تناوله على الغداء، وكيف عاملوه بشكل رائع، روى هورلين أيضا تجربتهَ بإسهاب بليغ أثار حسد هيلار بشدة.

- "وماذا فعلت بالسيجارتين؟" سأل سريعًا بحماسة.

- "دخنتهما" أجاب هورلين بأنفةٍ.

- كلاهما؟

- نعم أيها العجوز المأفون، كلاهما.

- دفعة واحدة؟

- لا، أيها الأحمق. واحدة تلو الأخرى.

- هل هذا صحيح؟

- ولماذا لا يكون ما أقول صحيحًا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"إذن..." بسرعةٍ تكلّم صانع الحبال الذي لم يصدق القصة، "سأُبلغك بأمر. أنت ثور معتوه، ومن أضخمها أيضًا".

- أنا! ولِمَ؟

- لأنك لو أبقيت واحدة لكان لديك شيء للغد. ماذا تملك الآن، ها؟

ثقُل ذلك على الصناعي. ومع ابتسامة عريضة أخرج السيجار المتبقي من جيب صدريته العلويّ ورفعها قبالة عيني صانع الحبال الحسود، متعمدًا إغاظته.

- هل ترى هذا؟ أنا لست مغفلًا بائسًا كما تظن.

- آها، إذَن أنت ما زلت تحتفظ بواحد، دعني أتأمله.

- انتظر، لستُ متأكدًا...

- أوه، سأنظر إليه فقط، أستطيع تمييز السيجار الجيد، وسأرجعه إليك فورًا.

ناوله هورلين السيجار، فأداره بين أصابعه ووضعه قرب أنفه وشمّه وهلة، وبينما هو يعيده مُكرهًا، قال:

- هاك... إنها لفافة بائسة من أوراق الخس، من النوع الذي تشتري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيجارين منه لقاء كروزر(9) واحد.

حينها علا جدال عن جودة الدخان وثمنه، واستمر حتى قاما إلى السرير. بينما كانا يخلعان ثيابهما وضع هورلين كنزه على الوسادة وأخذ يتأمله بلهفة. سخر هيلار منه:

- بلى، اصحبها إلى السرير! لعلها تنجب لك صغارًا.

لم يجبه الصناعي، وعندما صار زميله في السرير، وضع هورلين سيجاره على حافة النافذة وذهب إلى السرير هو الآخر. استرخى على فراشه، مسترجعًا قبل أن يخلد للنوم، نشوة الظهيرة، لمّا كان ينفث دخانه شامخًا في ضوء الشمس، والرائحة تعيد معها إليه شيئًا من الترف الآفل وإحساس الأبهة. كما كان في أيامه الخوالي، بين مكتبه وورشته، يستلُّ سيجاره الطويل، نافثاً في بطرٍ دخانه الكثيف عاليًا، غيماتٍ من أحد أباطرة الصناعة. ثم غط في نومه بعد ذلك مستحضِرًا في أحلامه صورةً لأوج مجده البائد، أيام كان يشمخ بأنفه الأحمر المتورم إلى السماء بذات الزهو المحتقر للعالم كما كان في أيام عزّه.

في منتصف الليل، وعلى غير عادته، استفاق من نومه فجأة، ليرى في الضوء الخافت صانع الحبال يقف عند رأس سريره مادًّا يده

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهزيلة إلى سيجاره على طرف النافذة. صرخ غاضباً وهو يقذف بنفسه من السرير مانعاً اللص من التراجع، وقف العدُوّان بعضهما قبالة بعضٍ وهلة دون أن ينبسا بكلمة، أنفاسهما ثقيلة لكنهما لا يتزحزحان، يراقبان بعضهما بنظرات السخط الثاقبة، ليسا واثقين تمامًا إن كان الخوف أم فرط الدهشة هو الذي منعهما من الالتحام في عراك بالأيدي. "اترك السيجار!" صاح هورلين أخيرًا بصوت مبحوح. لم يتزحزح صانع الحبال من مكانه. "ألقِها!" صرخ ثانيةً وهيلار ما يزال في مكانه، فمال بجسده إلى الخلف، وكان ليُسدد ضربة خاطفة لولا أن هيلار تفاداها في الوقت المناسب. غير أنه، وأثناء حركته، وقع منه السيجار، فحاول هورلين التقافه، ولكن هيلار داس عليه بكعب قدمه فتحوّل بطقطقة خفيفة إلى فتات. عندها ناوله الصناعيّ ضربة شديدة بين أضلعه، فاندلعت مصارعة متكافئة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتبادلان فيها اللكمات، إلا أن خَوَرهما غلب غضبهما، فلم تنتج عن شجارهما أي أضرار جسيمة. يتقدم أحدهما خطوة ويتراجع، ثم الآخر، والرجلان العاريان يدوران في الغرفة دون صخب كأنهما يؤديان رقصة بدائية، كلاهما منتصر، ولا أحد يتلقى ضربة واحدة. استمر ذلك إلى أن سنحت الفرصة للصناعيّ بالتقاط حوض الاغتسال الفارغ. فطوّح به عاليًا فوق رأسه ونزل به بأقصى طاقته على جمجمة غريمه الأعزل. لم تتسبب الضربة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بضرر حقيقي عدا أن ارتطام حوض الصفيح أحدث دويًّا مجلجلًا تردد في كل أرجاء البيت. على الفور فُتح الباب، ودخل المدير بقميص نومه ووقف بين المتبارزين موبّخًا وضاحكًا في الوقت نفسه.

"يا لكما من زوج نادر من الأوغاد" صاح بهما. "تتطارحان عرايا مثل تيسين هرمين! إلى السرير أنتما الاثنان... وإن سمعت صوتًا آخر فسيحدث لكما ما تندمان عليه".

- لكنه كان يسرق!

بدأ هورلين بالصياح، كما لو أنه يبكي بحنق وكبرياء جريح، وما لبث أن قاطعه وأمره بالتزام الصمت. تراجع التيسان إلى سريريهما متمتمين، واسترق الحائك السمع بعض الوقت خلف الباب، وعندما مضى كان كل شيءٍ ساكنًا في الغرفة. الحوض المعدني ملقىً إلى جانب فتات السيجار على الأرضية، ومن النافذة تتلصص ليلة صيفية شاحبة، وفوق المتشردَين الغارقين في بغضائهما تدلّت لوحة نصيّة تزينت بالزهور: "يا أولادي الصغار: أحبّوا بعضكم بعضًا".

تمكّن هورلين من انتزاع نصر جزئي على الأقل من هذه المسألة في اليوم التالي. فرفض بتصميم مواصلة مشاركة الغرفة مع صانع الحبال، وبعد ممانعة عنيدة من الحائك اضطر للإذعان وإفراد صانع الحبال في غرفة أخرى. ومجددًا عاد الصناعيّ ناسكًا في صومعته. وعلى قدر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سعادته بالتخلص من صحبة صانع الحبال، إلا أن وحدته افترست معنوياته إلى الحد الذي بات يدرك تمامًا، أول مرة، إلى أي نفق مسدود ركلهُ حظّه العاثر في أواخر أيامه.

لم يتمكن هورلين البائس من تصوّر أي تكهنات مستبشرة. في الماضي، ومهما ساءت به الأوضاع، إلّا أنه على الأقل كان حرًا، وحتى في أشد أيامه بؤسًا كان يملك على الأقل بعض الخردة لينفقها في الحانة، وكان يستطيع النزول في جولاته حيث يشاء. أمّا الآن فهو يقيم هناك، مجرّدًا من كافة حقوقه، مجبرًا على نظام محدد، لا مال يمكنه الادعاء أنه له، ولم يكن هناك ما ينتظره في هذه الدنيا سوى أن يتقدم في السنّ والوهن، وحين يأتي أجله، فما عليه إلا أن يتمدد فقط ويموت.

بدأ يقوم بأشياء لم يفعلها قط من قبل؛ كأن يراقب من موقع عالٍ مشرف على طريق أولباش، فوق البلدة وعلى امتداد الوادي؛ ويقيس الطرق البيضاء ببصره، ويتأمّل تحليق العصافير وارتفاع الغيوم؛ وبلهفةٍ يتتبع العربات السيّارة بعينيه والمارّة الصاعدين والنازلين، كما لو أنه منفيٌّ يندب صحبتهم، ومثل منبوذ لن يكتب له مشاركتهم تطوافهم.

ولكي يجتاز الأماسي، روّض نفسه الآن على القراءة؛ لكنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرض صفحًا وأشاح بوجهه عن سجلات الأحداث اليومية في التقاويم، والدوريات الدينية، إذ تملكه شعور بأنه لا يملك أي شيءٍ مشترك مع هؤلاء الناس وتلك الأحداث، مستذكرًا أيام شبابه، مدينة سولينغين، مصنعه، السجن، سهراته المرحة في "الشمس" العتيقة؛ وليعود دائمًا إلى هاجسه الآني بأنه بات وحيدًا، وحيدًا يائسًا.

هيلار، صانع الحبال، طارحٌ نفسه إلى جواره يرمقه بنظرات ماكرة. لكنه بعد مضي بعض الوقت حاول استئناف التواصل معه. عندما يلتقى بالصناعيّ في موضع استراحتهما كان يتصنّع تعابير ودودة ويحييه بقوله "طقس بديع، يا هَورلين. أظن بأننا سنحظى بخريفٍ جيدٍ هذه السنة، ألا توافقني؟". لكن هورلين بالكاد يتطلّع إليه، يومئ برأسه بشكل متعب، ولا يند عنه أي صوت.

Telegram:@mbooks90

على ذلك كلّه، كان ثمة خيط يلتفّ تدريجيًّا ليعيد الوصل ما بين المخلوقَيْن المشاكسين؛ وبدافعٍ من حزنه واشمئزازه، كان هورلين سيتشبث بأول قادم كما لو أنه الحياة ذاتها، فقط لكي يتخلص، من حين لآخر، من الشعور المنهِك بالوحدة والفراغ. بينما المدير الذي أزعجه حزن الصناعي الصامت، فعل ما بوسعه لمصالحة اثنين من رعاياه.

في النهاية جاء نوع من الخلاص، وإن كان غبيًّا، إلى الثلاثة. فخلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شهر سبتمبر قدم إلى الدار، بفاصل قصير، نزيلان جديدان. اثنان مختلفان كليًّا. أحدهما يدعى لويس كيلارهلس، لكن اسمه لم يكن معروفًا لأحد في البلدة. لأن لويس عُرف منذ عدة عقود بلقب هولدريا، الذي لم يُعلَم مصدره. وحين صار متقاعدًا قبل سنوات، نقلوه للسكن مع حرفي ودود، كان يعامله جيدًا ويعُدّه فردًا من العائلة. ولمّا تُوفِّي الحرفيّ، على أي حال، بصورة مفاجئة، ولأن الرجل من الصعب احتسابه جزءًا من التركة، كان من واجب مأوى الفقراء استقباله. دخل البيت بحقيبة بلاستيكية ممتلئة، ومظلة زرقاء كبيرة، وقفص خشبي أخضر، بداخله طائر دوريّ سمين. لم يبدُ مستاءً كثيرًا من تبديل محل إقامته؛ إذ دخل مبتسمًا متوهجًا بالسماحة، وصافح الجميع بحرارة، لم يتحدث ولم يسأل أي أسئلة، يفيض باللطف والدفء كلما خاطبه أو نظر إليه أحدهم، وحتى دون سابق معرفة بشخصيته، فإن ربع ساعة كافية لاكتشاف أي بائس مسالم ومسكين هو.

الرجل الثاني الذي جاء بعده بنحو أسبوع تقريبًا، لم يجلب وجوده بهجة أقل، ولكنه لم يكن ضعيف العقل، بل على العكس، بدا أنه مسالم بما يكفي، إلّا أنه كان مخادعًا على الدوام. يدعى ستيفان فينكينبن، كان أحد أفراد سلالة فينكينبن الشحاذين الرحّل المعروفين منذ أمد بعيد في المدينة وما حولها. من هذه العائلة الممتدة استقر فرعان في جيربرساو، وكان عددهم بالعشرات. كانوا جميعًا بلا استثناء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حادّي الذكاء، ومع ذلك فلم يبلغ أيٌّ منهم حد امتلاك ثروة حقيقة، حيث كانت السمة الراسخة في طبيعتهم أن يعيشوا أحرارًا كالطيور مستمتعين بالراحة في عدم تملك أي متعلقات.

ستيفان لم يزل دون الستين، ويتمتع بصحة مثالية. كان أقرب إلى النحول وكانت أطرافه، واقعًا، دقيقة. ولكنه كان دائمًا نشيطًا وبصحة جيدة، أمَا وكيف استطاع إقناع المجلس البلدي بترشيحه لحجز مكان في بيت الفقراء، فذلك ما كان أشبه باللغز. إذ حَوَت البلدة عدة أشخاص أكبَر منه سنًا، وأشد ضعفًا، بل إنهم أكثر فقرًا. ولكنه، ومنذ لحظة تأسيس هذا المأوى، كانت تملكه الرغبة في دخوله؛ أحس بينه وبين نفسه أنه واحد من إخوة الشمس منذ الولادة، سيكون بينهم ويجب عليه أن يغدو أحدهم. وها هو الآن هنا، مبتسمٌ وودودٌ مثل هولدريا الرائع، لكن بمتاعٍ أقل بكثير؛ فعدا ما كان يرتديه، لم يجلب معه سوى قبعة قاسية قديمة الطراز تتصف بالأناقة، وإن لم تحافظ على لونها فقد حافظت على شكلها. قدّم نفسه على أنه شعلة اجتماعية حية، وطيّب المعشر. ولأن هولدريا سبق وأن أُنزِل في غرفة هورلين، وُضع هو مع هيلار صانع الحبال. وجد كل ما حوله جيدًا ويستحق الثناء، باستثناء الصمت السائد بين زملائه الذي لم يرق له. في إحدى الأمسيات، وقبل العشاء، بينما جلس أربعتهم خارج الباب باغتهم بالقول: "قل لي، أيها السيد الصناعيّ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل أنت متفجّعٌ دومًا هكذا؟ تبدو كثوب حِداد!"

- أوه، لا تزعجني!

- لماذا؟ ما بك؟ لماذا نجلس كلنا على أي حال محاطين بالوقار؟ ألا يمكننا إلقاء طرفة من وقت لآخر؟

ألقى هورلين سمعه مبتهجًا للحظة، ولمعت عيناه المتعبتان، وهزّ رأسه بشكل يائس، ثم قلّب جيبيه إلى الخارج، ورسم على وجهه تعبيرًا متكلّفًا عن البؤس.

"اها، فهمتك الآن. لا نقود" صاح فينكينبن ضاحكًا، "لطالما تصورت أنَّ الصناعيين لا بدّ وأن يكون لديهم شيء ما يخشخش في جيوبهم. هذا هو يومي الأول هنا ولا يجب أن يمضي جافًا هكذا. هلمّوا، كلكم، فما زال فينكينبن يخبئ القليل من المال في سرواله لوقت الحاجة".

قفز الحزانى الاثنان وقوفًا على الفور، تركوا هولدريا العجوز ضعيف العقل جالسًا حيث كان، ثم تمايل الثلاثة بخطوات مسرعة إلى حانة (النجمة)، وما لبثوا أن جلسوا على نضد في مواجهة الجدار، وأمام كل واحد منهم كأس. هورلين الذي لم ير داخل حانة منذ أسابيع وأشهر كان في مزاج من الحماسة والفرح. يتنفس هواء المكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدفعات بطيئة وعميقة، ويسف شرابه بجرعات قصيرة مقتصدة وحييّة. كما لو أنه صحا من كابوس لعين، شعَرَ بأنه عاد إلى الحياة مجددًا، مرحَّبًا به في أجواء أليفة. فاستعاد كل حركاته وإيماءاته الطوعية وشبه المنسية من أيامه الخوالي، قرع على الطاولة بشكل مدوٍّ، طقطق بأصابعه، بصق على الأرضية متماديًا وكشطها بحذائه بصوت مزعج. تغيرت حتى طريقة كلامه فجأة، فصارت الكلمات القوية الآمرة تدوي من بين شفتيه الزرقاوين كما لو أنه ذاك الآمر الناهي في عهده المستقر.

بينما كان المصنعي يجدد شبابه بأن يتشمس في شفق إنجازاته الغابرة وسعادته الآفلة، كان لوكس هيلاريرمق كأسه متمعّنًا، وقد قرر بأن الوقت قد حان لينتقم من الرجل المغرور على كل إهاناته، وبالأخص تلك الضربة المخزية بالحوض المعدني على رأسه في تلك الليلة التي لا تنسى. فجلس صامتًا هادئًا مترقبًا اللحظة المناسبة.

في غضون ذلك، وعلى عادته مع كأسه الثانية، بدأ هورلين بالإنصات إلى المحادثات التي تجري في الجوار على الطاولة المقابلة، ليشارك بها بالإيماء والهمهمة وشتى التعابير، وليحشر "أوه، صحيح" أو "حقًا؟" بشكل عرضي. شعر بأنه استعاد ماضيه الجميل تمامًا، ولما تطورت المحادثة في الطاولة المجاورة لتصير متوثبة وحادة، استدار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجسده ليواجه المتكلمين، وليدخل بسرعة، كما هي عادته، في جدال وسط الآراء المتضاربة. في البداية، لم يُلقِ الرجال الآخرون له أي بال، إلى أن صاح أحدهم فجأة، وكان سائقًا:

- يا إلهي! أنه صاحب المصنع، ما مشكلتك أيها الوغد العجوز؟ كن لائقًا واحفظ لسانك وإلا أسمعتك ما لا يسرك!

أشاح هورلين برأسه بعيدًا، ولكن صانع الحبال لكزه بين أضلاعه وتمتم له بحماسة "لا تدع ذاك الشخص يخرسك! أسمعه أنت شيئًا، شيئًا لاذعًا!"

التشجيع أثار حساسية الصناعي وأثار حماسته مع وعيه الجديد بنفسه، فضرب بيده على الطاولة في علامة للتحدي، واقترب من المتحدث، نظر إليه شزرًا، وتكلّم بصوته العميق:

- بعض الأخلاق من فضلك، يبدو أنك تفتقر لآداب التصرف.

ضحك بعض الرجال، وردّ السائق، محافظًا على طلاقة محيّاه:

- انتبه لنفسك أيها المصنعي فإذا لم تخرس، فستحظى بما لم تتوقعه.

"دعك من هذا الهراء". قال هورلين باستعلاء لافت للنظر، مُحرّضًا مرة أخرى بلكزة من صانع الحبال. "أنا أنتمي لهذا المكان تمامًا مثلك، ولدي الحق في الحديث مثل الرجل إلى جانبك، ها قد أبلغتك!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السائق، الذي سدد للتو ثمن جولة أخرى من الشراب، شعر بأنه مخوّل بتولي قيادة هذه المسألة أيضًا، فقام وتقدّم، وقد سئم من المماحكة. "عد إلى ملجأ الفقراء، إلى حيث تنتمي" قال لهورلين، ثم شده من ياقته، وجرّهُ منكمشًا فزعًا، إلى الباب، وساعده في الخروج منه بركلة. ضحك البقية، ورأوا أن المزعج استحق ذلك الجزاء. الحادث الصغير انتهى، وتابعوا حديثهم الجاد بالصراخ والأَيْمَان.

صانع الحبال كان سعيدًا، وأقنع فينكينبن بطلب كأس صغيرة أخرى. ولأنه أدرك قيمة هذا الرفيق الجديد، بذل قصارى جهده ليقيم علاقة ودية معه، إلا أنه لم يحصد من فينكينبن سوى ابتسامة صامتة. في يوم من الأيام باشر التسول في شارع كان يعمل فيه هورلين، الذي قام بطرده بالقوة. مع ذلك، لم يحمل ضغينة ضد الرجل، ورفض المشاركة في الإساءات التي يصبها الآن صانع الحبال على الرجل الغائب. إذ كان أكثر قدرة على التأقلم من أولئك الذين كانت ظروفهم أفضل قبل أن يغرقوا، فتعامل مع العالم كما هو وتسامح مع تصرفات الناس الغريبة.

Telegram:@mbooks90

"هذا يكفي يا صانع الحبال". قال محتجًّا، "هورلين أحمق، لا شكّ في ذلك، لكنه ليس الأسوأ في العالم، أنا سعيدٌ أن لدينا من نستحمقه هناك".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقبّل هيلار هذا التصويب، واستدرك ليؤقلم نفسه في نبرة توافقية. صار وقت المغادرة، فقاما سويًّا ووصلا إلى البيت تمامًا في وقت العشاء. المائدة الآن بات لها منظر مهيب؛ على رأسها جلس الحائك، وفي جانبٍ جلس صاحب الخدين المتوردين، هولدريا، ويليه العجوز النحيل النخر ذميم المنظر، هورلين، وقبالتهما جلس الماكر صانع الحبال بشعره القليل، وفينكينبن المبتهج لامع العينين. وُفّق الأخير بمسامرة المدير وأبقاه في مزاج جيد، موجّهًا بعض النكات للأبله من وقت لآخر، الذي يستقبلها بتكشيرةٍ مجاملة. وبعد تنظيف الطاولة وغسل الصحون، أخرج ورق الشدّة من جيبه واقترح جولة من اللعب. الحائك كان يميل إلى منعهم، لكنه وافق في النهاية بشرط أن تكون لعبة ودية. انفجر فينكينبن ضاحكًا:

- "بالتأكيد، سيد سوبيرل، ماذا عساها تكون غير ذلك؟ لقد ولدت وبين يديّ الملايين، لكنها جميعها ابتلعتها أسهم شركة هورلين، أعتذر منك، يا سيدي الصناعي".

استهلّوا اللعب إذًن، مرحين لبعض الوقت، لا يقاطعهم سوى عدد من النكات التي يلقيها فينكينبن، ومحاولة غش من صانع الحبال، اكتشفها وفضحها الرجل اللبق نفسه. إلا أن صانع الحبال بدأ يجمح، ويلقي بتلميحات غامضة عن مغامرة "النجمة". لم يلق هورلين له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالًا في البداية، ثم قام بإشارات غاضبة لإيقافه. قابلها صانع الحبال بضحك خبيث وهو يتطلّع إلى فينكينبن. رفع هورلين رأسه فالتقط الضحكة المستهجنة والغمزة، وأدرك فجأة أنّ هيلار هو السبب وراء طرده، وها هو الآن يتسلّى على حسابه. أحسّ بأنها طعنة غائرة في الصدر. تجهّم غاضبًا ورمى أوراقه على الطاولة في منتصف الجولة، ولم يستطيعوا إقناعه بمتابعة اللعب. عرف هيلار بالضبط ما أثاره، فلم ينطق بشيءٍ، وقام بمضاعفة جهوده لإنشاء علاقة طيبة مع فينكينبن.

هكذا اشتعلت العداوة من جديد بين الغريمين القديمين، لكنها هذه المرة أسوأ، فهورلين بات مقتنعًا الآن أن فينكينبن كان يعرف بالمؤامرة وساعد في تنفيذها. بينما حافظ الأخير على كياسته ولطفه، ولأن هورلين بات يشك به الآن، حتى إنّه يأخذ مداعباته حين يناديه بـ (المستشار) أو (السيد هورلين النبيل) وأضرابها بسوء نيّة، فانقسم إخوة الشمس إلى مجموعتين. اعتاد الصناعي على هولدريا الساذج بكونه شريك غرفة، بل وقرّبه منه مثل صديق.

من وقت لآخر، ومن مصادر خفية، يحصل فينكينبن على قليلٍ من المال، فيدعو الجميع إلى زيارة سرية أخرى للحانة. ولكن هورلين، على شدة الإغراء، تشبث برأيه وامتنع عن الذهاب معهم، مع ألم معرفته بأن هيلار بذلك يتفوق عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عوضًا عن ذلك، يبقى في البيت مع هولدريا، الذي يستمع إليه بابتساماتٍ مشرقة، أو بعينين كبيرتين مشوشتين حين يزمجر، أو يشتم، أو حين يصف ما يمكنه تحقيقه لو أنَّ أحدًا أقرضه ألف مارك.

على الجانب الآخر، حافظ هيلار بمهارة على علاقته مع فينكينبن، مع أنه عرّض هذه العلاقة في الأيام الأولى إلى مجازفة خطيرة. في إحدى الليالي، وعلى عادته، قام صانع الحبال بتفتيش ملابس شريك غرفته؛ فوجد ثلاثين بفينيغ (10)، فاستولى عليها. ضحية السرقة لم يكن نائمًا، فراقبه بهدوء بجفنين نصف مطبقين، وفي اليوم التالي هنّأ صانع الحبال على خفته، وامتدحه كثيرًا، وطلب منه إرجاع المال، وتصرف كما لو أنها كانت مزحة جيدة. وهكذا وضع هيلار تحت سيطرته تمامًا. وعلى أن الأخير وجد فيه رفيقًا طيبًا مرحًا، إلا أنه لم يتمكن من صبّ شكاويه من هورلين في أذنيه بحُريّة كما يفعل هورلين مع حليفه. علاوة على أن فينكينبن سئم من طعنه في النساء.

- حسنًا، هذا يكفي يا صانع الحبال، أنت كصندوق الأورغن (11) بنغمة واحدة فقط دون تغيير. فيما يخص النساء، أجرؤ على القول بأنك على حق. لكن هذا يكفي بربك! يجب عليك تغيير النغمة، أي شيء آخر، لن أبالي حتى لو قلت إنّ أحدهم سرقك.

كان الصناعي في مأمن من مثل هذه التصريحات. الحال على ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرام، إلا أنه لم يجعله سعيدًا. كلما زاد حِلم مستمعه، غاص أكثر في كآبته. بضعة أحيان، أصابه الانطلاق الكامن في شخصية هذا الفينكينبن عديم الفائدة بالعدوى مدة لا تتجاوز نصف ساعة، إلى حد أنه استعاد فيها تلويحاته العظيمة وكلماته البليغة من أيامه الذهبية. لكن يديه أصبحتا قاسيتين متصلبتين والكلمات لا تخرج من قلبه كما اعتاد. في آخر أيام الخريف المشمسة يقعد أحيانًا تحت شجرة التفاح الذابلة، لم يعد ينظر الآن إلى البلدة والوادي بحسد أو لهفة. نظرته باتت تائهة وغريبة، وكأن هذا كله لم يعن له شيئًا، أو خارج نطاقه. في واقع الأمر، لم يعد هذا يعني أي شيء بالنسبة إليه، لأنه كان ينهار بشكل واضح ولم يعد أمامه ما ينتظره.

أصابه الوهن على حين غرة، صحيحٌ أنه وبعد فترة وجيزة من تداعيه، وفي أيامه العطشى، عندما كان يُنّي معرفته بـ (الشمس)، غزاه الشيب بسرعة وبدأ يفقد رشاقته، إلا أنه كان قادرًا سنوات على التعايش وشرب ما يشاء من كؤوس النبيذ، ولعب دور الريادة في محادثات الحانة أو الشارع. مأوى العجزة وحده هو الذي أسقطه على ركبتيه واقعًا. عندما كان مبتهجًا بإنزاله هناك، لم يدرك أنه يقطع أفضل خيوط حياته؛ إذ إنه لا يمتلك موهبة العيش دون مشاريع وطموحات وكل أنواع الحركة والضوضاء. وعندما استسلم للضجر والجوع، وتنازل عن روحه ليستريح، حينها كان إفلاسه قد وقع فعلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالآن لم يبق له سوى أن ينتظر برهة إلى أن تنتهي حياته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

الحقيقة أن هورلين قد اعتاد طويلًا على حياة الحانات، والرجل العجوز لا يستطيع التخلص من العادات القديمة، حتى وإن كانت معيبة، دون أن يتأذى. وحدته وعداوته مع هيلار أدّت إلى تزايد صمته، وعندما يصمت متحدّث عظيم، فهذا يعني أنه في طريقه إلى المقبرة.

يا له من مشهد محبط، أن شخصًا يتقن فن الحياة -وإن كان على نطاق ضيق؛ إذ دَرَجَ إلى أن شاب رأسه، في صرف وقته وجهده على الأناقة، والخيلاء، والأنانية؛ عوضًا عن الوصول إلى خاتمة مفاجئةً لحياته في قتال، أو في طريق عودته إلى البيت ليلًا من الحانة- يُجبر على مواصلة العيش إلى أن تتعاظم سوداويته، وينتهي غارقًا في التأملات العاطفية، التي طالما كانت دخيلة بالنسبة له. لكن، لمَّا كانت الحياة مؤلِّفًا موسيقيًّا مقتدرًا لا يُنازع، فلا يمكن اتهامها بالنزوات الفارغة، وليس أمامها سوى أن تستمع لكل ما تعزفه من متاعب وآلام؛ وتستبدعه، وتظن به الخير. ففي النهاية، هناك جمالٌ دراميّ عندما تقوم روحٌ مدللةٌ، تُركت غضة، ثم أُشبعت سحقًا؛ لتثور في النهاية وتطالب بحقوقها، وتخفق بجناحيها المرهقين، ولمّا لم يبق لها أي شيءٍ؛ تصر على الحصول على ما يغمرها من المرارة والمعاناة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكاثرت الهموم التي قدمت لتكشط أو تقرض هذه الروح الصلفة قليلة المراس، وبات واضحًا أن عنادها السابق وضبط النفس كانا يستندان إلى أسس غير آمنة. كان المدير أول من أدرك حالته. قال للقس في إحدى زياراته، وهو يهزّ كتفيه: "لا يسعُ المرء سوى الشعور بالأسف على حال هورلين؛ فهو يبدو قانطًا، أنا لا أكلفه بأعمال، ولكن ذلك دون جدوى، فليس هذا ما يتعبه. إنه يفكر ويستطلع كثيرًا. لولا أنني أعرف من هم على شاكلته جيدًا، لقلت أنه فقط ضميره الميت، ولقمتُ بمعاقبته على ذلك. لكن ذلك ليس كل شيء. هناك شيء ما ينهشه من الداخل، وفي مثل عمره، لا يمكن للمرء الاحتمال طويلًا، وسنرى النتيجة".

بعد هذا الحديث زار القس هورلين من حينٍ لآخر في غرفته، بجوار قفص هولدريا الأخضر، وتحدث معه عن الحياة والموت، وحاول أن يجلب بعض النور إلى ظلمته، لكن دون فائدة. أنصت هورلين، أو لم يفعل تبعًا لمزاجه، أومأ برأسه أو همهم، ولكن بلا كلام، وتزايد شعوره بالغربة. من وقت لآخر كانت تروق له إحدى نكات فينكينبن؛ فيرد بابتسامة ناشفة، أو بضربة على الطاولة، أو إيماءة موافقة، ثم ما يلبث إلا أن يغرق بعد ذلك مباشرة في ذاته؛ منصتًا للأصوات المضطربة التي استرعت انتباهه ولوّعته دون أن يتمكن من فهمها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظاهريًا لم يبدُ سوى أنه أكثر هدوءاً وحزنًا فقط، فعامله الجميع كما كانت العادة. الأبله وحده، لو لم يكن ضعيف العقل، كان قادرًا على فهم حالة هورلين وتدهوره التدريجي، والشعور بشيء من الرعب لمنظره؛ فهذه الروح الودودة الوديعة صارت رفيق الصناعي وصديقه الدائم. جلسا سويًّا قرب القفص الخشبي، دسّا أصابعهما بين قضبانه لكي ينقرها الدوريّ السمين، متكئين صباحًا في الردهة، والشتاء على الأبواب، بجانب الموقد نصف الدافئ، ونظرا بعضهما إلى بعض بتفاهم شديد، كما لو أنهما حكيمان لا مجرد زوج من القانطين الحمقى. قد تلحظ في بعض الأحيان وحشين حُبسا معًا يتطلع بعضهما إلى بعض، بالطريقة ذاتها، وتبعًا لمزاج الرائي؛ قد تبدو نظراتهما بليدةً، أو ممتعة، أو مؤثرة بشدّة.

ما كان يشقُّ على هورلين أكثر من أى شيء آخر، هو الإهانة التي تعرض لها في حانة النجمة بتحريضٍ من هيلار. جرى ذلك على الطاولة نفسها التي اعتاد الجلوس عليها غالبًا وبوتيرةٍ يوميّةٍ تقريبًا، وفي المكان الذي أفرغ به آخر درهم في جيبه، حيث كان يعدّ زبونًا ممتازًا، صديقًا للجماعة ومقدّمًا في الحوارات، وها هو مالك المحل وضيوفه على السواء يقهقهون جميعًا وهو يُركل إلى الخارج. أُجْبِر على أن يستشعر بعظامه أنه لم يعد ينتمي إلى ذلك المكان، وأن لا اعتبار له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إطلاقًا، أنّه نُسيَ وشُطب من القائمة وما عاد له أي طيفٍ من فضلٍ أو أسبقيةٍ أو حق.

كان بوسعه الانتقام لنفسه من هيلار بأي مكيدة رخيصة في أول فرصة، لكنه الآن لا يُفصح حتى عن كلمات الإساءة المعهودة التي يتّسع لها لسانه بيسرٍ. ماذا عساه يقول له؟ لقد كان محقًا تمامًا. فلو أنه بقي كما عهدوه في الماضي لما تجرّأ أحد على طرده من النجمة. لقد انتهى أمره، ولعله من الخير له أن يحزم حقائبه ويغادر.

حاليًا، لا ينتظره إلا تدبّر الطريق الحتمي المباشر والضيّق، وسلاسل لا حصر لها من أيام الفراغ الجوفاء الخاملة، والتي في نهايتها يلوح الموت -الذي يفكر فيه أحيانًا بتوقٍ، وأحيانًا أخرى برعشاتٍ حانقة. سُوِّي كل شيءٍ، ووُضع له حدّ، وتم فرضه بكل وضوح وبشكل لا لبس فيه. ما عاد هنالك أي فسحة لتزييف حساب ختامي أو تزوير ورقة، أو أن يتحول إلى شركة مساهمة، أو أن يشهر إفلاسه بطرقٍ ملتوية يتسلل بعدها إلى الحياة ثانية. لم يعُد شركة أو اسمًا، إنما عجوز منهك شرعت هاوية الجحيم أمام عينه كل هولها، وأشباح الموت المُروِّعة تخاتله بصمتٍ لتقطع دونه طريق العودة. وعلى أن الصناعيّ تمرّس على ضروب متنوعة من الظروف، ويعرف كيف يتعامل معها، إلا أنّ هذه كانت مختلفة. كلما حاول طردها بتلويحات واهنة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ذراعيه الهرمتين، عاد ليدفن وجهه بين يديه، ويغلق عينيه، وهو يرتجف خوفًا من يدٍ لا مفر منها، يشعر بها تهبط لتقبضه.

فينكينبن ذو القلب الطيب، الذي بدأ يستنتج بشكل تدريجي أن مسائل الأرواح والخاتمة هي التي تُطبق على الصناعي، كان يمنحه أحيانًا بضع كلمات تشجيعية، أو يطبطب على كتفه بضحكةٍ مواساة:

- دعني أقلْ لك، سيدي المستشار، لا حاجة بك لكل هذا التفكير، فأنت رجل ذكي بما يكفي، وفي سالف أيامك تفوقت على كثير من الأذكياء والأثرياء، أليس كذلك؟ لا تأخذها على محمل الجد، أيها المليونير، فلم أقصد أي إساءة، إنها مجرد مزحة صغيرة يا رجل! انظر إلى النص المقدس فوق سريرك.

ثم مد يديه بوقار كما لو أنه قسيس جاء يباركه، وتلا العبارة بتملّق: "يا أولادي الصغار: أحبّوا بعضكم بعضًا".

"أو...، انتظر قليلًا!" أضاف، "سنفتح حسابًا للادخار، وعندما يمتلئ، سنشتري من البلدة مأوى فقرائها المهلهل، ونستخرج اليافطة، ونجعل الشمس العتيقة تشرق من جديد، نَصُبّ بعض الزيت في الماكينات مرة أخرى. ما رأيك في ذلك؟".

"فقط لو أني أملك خمسة آلاف مارك..." يبدأ هورلين بالافتراض،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن البقية بدؤوا في الضحك، وانفضوا عنه، أما هو فيبلعُ حسرة، ويعود إلى خموده.

عندما حلّ الشتاء، شاهدوه يزداد عزلةً واضطرابًا. وصارت لديه عادة بتكرار الدخول والخروج من الغرفة، عابسًا تارةً، وتارةً بنظرةٍ فزعة، وتارة أخرى بنظرة الحارس اليقظ البارع. عدا عن ذلك لم يكن يزعج أحدًا. غالبًا ما كان هولدريا يصاحبه، ويضطر إلى استنساخ خطواته في تجواله المتواصل داخل وخارج الغرفة، مجيبًا بحدود معرفته على نظرات وإيماءات وتنهدات المتجوّل القلق، الذي دائمًا ما كان يفرّ من الأرواح الشريرة التي لا يستطيع النجاة منها؛ لأنه كان يحملها بداخله.

كان يحب طوال حياته لعب دور المخادع، بحظوظ متفاوتةٍ في النجاح، أما الآن فهو مُلزمٌ بإدارة سلوكه الشبيه بدور المهرّج وصولًا إلى نهايته الحزينة. أدى دوره بصورةٍ بائسةٍ وسخيفةٍ بما يكفي. لكن الدور هذه المرة جاء موافقًا لحقيقة نفسه؛ فالمُدّعي المتكلّف السابق صعد الآن، لأول مرّة، على خشبة المسرح دون قِناعِهِ، خلافًا لمصلحته. إن إدراك اللانهائي والأبدي، والتوق إلى ما يستعصي التعبير عنه، الفطري في هذه الروح كما في أرواح الآخرين، المهمل المنسيّ خلال حياة كاملة، اكتُشِف الآن عندما تضخّم ولم يجد له أي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منفذ، فحاول التعبير عن نفسه في التجهم، والإيماءات، ونغماتٍ بالغة الغرابة، بطريقة سخيفة ومثيرة للسخرية. لكن كانت هنالك قوةٌ حقيقيةٌ وراء كل ذلك، والرغبة العمياء في الموت كانت بالتأكيد أول نقلة كبيرة، وعقلانية -وفق الإدراك العالي- عرفتها هذه الروح الصغيرة منذ سنوات.

من بين العروض التي قدمها عقلٌ خرج عن عقاله، أنه كان يزحف مرات عديدة خلال اليوم تحت سريره، ويُخرج شمس الصفيح العتيقة ويقدم لها تبجيلًا أخرق، تارةً يحملها بهدوء أمامه مثل وعاء (12) القربان المقدس، وتارةً يضعها أمامه ويحدق إليها بعينين مذهولتين، وتارةً أخرى يضربها غاضبًا بقبضته، ليعود بعد ذلك مباشرة فيحملها بلطف بين ذراعيه، يمسّدها ويداعبها قبل أن يعيدها إلى مخبئها. عندما بدأ يقوم بتلك المهازل الرمزية، خسر كل ما بقي له من رصيد شحيح من العقل في أعين زملائه، وعُدَّ هو وزميله هولدريا مخبولين قطعًا. صانع الحبال تحديدًا عامله بازدراء سافر، فكان يهينه ويمارس عليه ألاعيبه متى ما تسنى له ذلك، وكان يزعجه جدًّا أن هورلين بدا كما لو أنه لا يكترث له.

أخذ شمس الصفيح في إحدى المرات وقام بإخفائها في غرفة أخرى. وعندما ذهب هورلين لاستخراجها كعادته ولم يجدها، قام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالبحث عنها حول البيت بعض الوقت، وفتش مرارًا في مواضع عدة، ومن ثم أطلق خطابات تهديد واهنة لكل النزلاء بلا استثناء، بما فيهم المدير، وحين لم يجدِ ذلك نفعاً، جلس إلى الطاولة، ودفن رأسه بين يديه، وشرع في نشيج يبعث على الشفقة امتدّ نصف الساعة. كان ذلك كثيرًا على فينكينبن المتعاطف، الذي سدد لكمة قوية على أذن صانع الحبال الفزع، وأجبره على إعادة الكنز المخبوء.

كان يمكن للبنية المتينة لجسد الصناعي الصمود لسنوات عديدة أخرى، على الرغم من شعره الأبيض بأكمله. لكن الرغبة في الموت، وإن كانت تعمل فيه دون وعي منه، وجدت طريقها للظهور سريعًا، لتضع حدًّا للملهاة التراجيدية البشعة. ففي إحدى ليالي شهر ديسمبر، لم يستطع العجوز النوم، فجلس على سريره وترك نفسه لأفكاره الخاوية، محدّقًا في الجدار المظلم، فأحسّ بأنه منبوذ أكثر من المعتاد. في ظل هذا المزاج من الضعف والخوف، وانقطاع الآمال، نهض أخيرًا من سريره دون أن يدرك تحديدًا ما الذي يريد فعله، فقام بفك حمالة بنطاله المصنوعة من القنّب، وشنق نفسه بها فوق عضادة الباب. وجده هولدريا في صباح اليوم التالي، وصرخة الرعب التي ندّت عن المعتوه كانت كفيلة بجلب المدير. بدا وجه هورلين شاحبًا قليلًا أكثر من المعتاد، فقد كان من المستحيل تشويهه أكثر مما هو عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت صدمة رهيبة، إلا أن تأثيرها كان قصيراً. وحده هولدريا نشج بصوت خفيض وهو يشرب طاس قهوته، في حين علم البقية أو شعروا أن نهاية الصناعي جاءت في وقت مناسب بالنسبة إليه، ولم يكن من سبب حقيقي للأسى أو الرعب. في النهاية، لم يكن يحبّه أحد.

قام بعض المراسلين بالقطعة (13) بتحقيق متسرع في القضية الشيقة، ونقلوا إلى قراء صحفهم الرخيصة، بالإضافة إلى المواعظ الضرورية، أن المُفلس المعروف كارل هورلين قد أوصل حياته إلى نهاية موائمة منتحراً في مأوى الفقراء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

عندما قدِم فينكينبن نزيلًا رابعًا، كانت هناك شكاوى في البلدة من السرعة التي تُشْغَل بها المؤسسة حديثة الإنشاء، والآن نقص واحد من المجموع. صحيحٌ أن الفقراء لديهم بنية جسدية جيدة يصلون بها إلى سنٍّ متقدمة، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن الفجوات نادرًا ما تبقى على حالها، فهي تميل إلى التهام ما يحيط بها. وهذا ما كان، بطريقة أو بأخرى. فما كادت مستوطنة عديمي الجدوى تقوم حتى بدأ يطالها الفناء ويُمعن في عمله.

في الوقت الراهن، بدا كما لو أن الصناعي قد نُسي، واقعًا، ومضت الأمور كما في السابق. تولّى لوكاس هيلار قيادة الجماعة الصغيرة، بالقدر الذي يسمح له فينكينبن بذلك، فجعل حياة الحائك عذابًا، وتمكن من إزاحة نصف العمل الموكل به إلى عاتق هولدريا المتطوّع. لذلك كان مرتاحًا ومرحًا، وبدأ يستقر كما لو أنه في عشه الدافئ، فعزم على نبذ القلق تحت هذه الظروف الممتعة، ليعيش في سبيل سعادته وإزعاج المسنين. فالآن وقد رحل هورلين، بات هو أكبر "إخوة الشمس" سنًّا. استراح كما لو أنه في بيته، فلم يسبق له الشعور أبدًا بالتناغم مع بيئته هكذا، متدبّرًا أموره دون حد البذخ، وقدر من الطمأنينة والبطالة وفرت له الوقت الكافي ليسترخي ويتخيل نفسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محترمًا، لا بوصفه فردًا عديم الفائدة كليًّا للجماعة وللمدينة وللعالم بأسره.

كانت الأمور تجري خلاف ذلك مع فينكينبن. فصورة حياة أخوية الشمس المثالية التي كان يتخيلها ويصوّرها في باله بألوان متوهجة، كانت أبعد ما تكون عن الواقع الذي تكشّف له. من المؤكد أنه حافظ على خفة ظله كما في السابق، تنعّم بسريره الجيد، والموقد الدافئ، والطعام الوفير، ولم يجد أي مشكلة في أي شيءٍ. كما واصل جلب بعض المال من رحلات سرية إلى المدينة من أجل الشراب والتدخين، والتي شاركها بسخاء مع صانع الحبال. لم تكن لديه مشكلة في تزجية الوقت، فهو يعرف كل وجوه الصاعدين أو المنحدرين في الطريق، وكان محبوبًا بشكل عام؛ لذا كان يمكنه عند كل بيت أو باب محل، على الجسر أو في الشارع، قرب عربات الجر أو عربات الدفع، في حانة "النجمة" أو حانة "الأسد"، أن يحظى بمحادثة مع أي شخص على الإطلاق.

مع ذلك كله لم يكن مرتاحًا. بادئ بدء، لم يكن هيلار وهولدريا رفيقين مقنعين له على أساس يومي، وهو من اعتاد التواصل مع أناس أكثر حيوية وفائدة، ومن ثَمَّ وجد صعوبة مع روتين هذه المعيشة، بساعاتها المحددة للنهوض من النوم، وتناول الطعام، والعمل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والذهاب إلى الفراش. وأخيرًا، وتلك كانت هي مشكلته الرئيسة، أنه عدَّ هذه الحياة جيدة ومريحة جدًّا بالنسبة إليه. فقد تروّض على تعاقب أيام الجوع وأيام الولائم؛ أن يغفو يومًا على فراش وثير ويومًا آخر على القش، أن يكون محط إعجاب تارة ومكروهًا تارة أخرى. كما دأب على التجوال إلى حيث تأخذه قدماه، وأن يخاف من الشرطة، والعبث أحيانًا مع الجنس اللطيف، وأن ينتظر من كل يوم شيئًا جديدًا. اشتاق هنا إلى هذا الفقر، والحرية، والحركة، والترقب، ووصل أخيرًا إلى نتيجة مفادها أن دخوله إلى المأوى، الذي قام لأجله بحيلٍ كثيرة، لم يكن على هوى توقعاته، وأن خطته العبقرية كانت خطأً غبيًّا مع آثار متعِبة وعواقب لا تمحى.

إذا كانت هذه النتائج قد قادت فينكينبن إلى نهاية مختلفة عن الصناعيّ، فَمَرَدُّ ذلك أنه كان ذا طبيعة مخالفة تمامًا. بدايةً، هو لم يشنق نفسه، ولا هو الذي ترك تفكيره يسافر دون انقطاع في فضاء الفجيعة والاستياء، فقد حافظ على أفكاره متجددة ونشِطة. ولم يُلقِ كثيرًا من البال للمستقبل، وتراقص بخفة من يومٍ إلى التالي. سحر لبّ الحائك، والأبله، وهيلار صانع الحبال، والدّوري السمين، واحتل نظامهم الفكاهي. حافظ من حياته السابقة على عادة الفنان الرخيّة بألّا يقوم برسم خطط أو يلقي مرساته (14) في سبيل أمنيات أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آمال أبعد من وضعه الراهن. أثبتت العادة نجاحها معه هذه المرة أيضًا، إذ كانت احتياجاته مؤمّنةً لآخر أيامه، لكي يحيا حياة الطيور والذباب، وتلك كانت نعمة لا تخصّه وحده بل المأوى بأسره؛ حيث اكتست حياتهم اليومية من خلال وجوده لمسة من الحرية والمرح الأنيق. هذا ما كانوا يحتاجونه بصراحة، فسوبيرل وهيلار بالكاد امتلكا بين خصالهما ما يفوق ما لدى الأبله هولدريا، ليساهما به في بث روح البهجة والزينة على معيشتهم المُضجرة.

مضت الأيام والأسابيع بشكل محتمل، وإن لم تكن مرحة دائمًا، فعلى الأقل لم تعد هناك أي نزاعات أو خلافات. أغرق المدير نفسه في القلق والعمل حتى صار نحيلًا ومتعبًا، وتلذذ صانع الحبال بشراهةٍ بالراحة الرخيصة، أما فينكينبن فأغلق عينًا واحدةً وعاش حياة طافية عن كل المشاكل، بينما ازدهر هولدريا بشكل إيجابي في راحة البال الأبدية، فازداد يوميًا في لطفه وشهيته ووزنه. كان يمكن أن يكون ذلك هو المآل المثالي للأمور، إلّا أن الشبح الهزيل للصناعي الميت ظل يحوم في الأرجاء. كان مقدّرًا للفجوة أن تتسع.

مضت الأيام وصولًا إلى يوم الأربعاء من شهر فبراير، حيث كان على لوكاس هيلار إنجاز عمل ما في مخزن الأخشاب في الصباح، ولأنه ما زال لا يستطيع العمل إلا بمناورة الكرّ والفر والاستراحات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطويلة، جاء فقعد تحت القنطرة متعرقًا فأصابه سعال وصداع. في منتصف النهار، بالكاد تناول نصف قدره المعتاد، وفي الظهيرة بقي مرتجفًا إلى جانب الموقد، وهو يسعل ويشتم، وبحلول الساعة الثامنة مساءً ذهب إلى السرير. في صباح اليوم التالي أرسلوا في طلب الطبيب. هذه المرة هيلار لم يأكل أي شيءٍ في الغداء، وبعد ذلك بوقت قصير نشبت بجسده الحمّى، وفي المساء اضطر المدير وفينكينبن للتناوب على رعايته. تلا ذلك موت صانع الحبال، مات عنيدًا، حسودًا، دون أن يكون بأي حال من الأحوال صبورًا أو هادئًا؛ فتخلصت المدينة من متقاعدٍ آخر لم يحزن عليه أحد.

كان الفأل الحسن ينتظرهم، ففي شهر مارس حلّ الربيع على غير عادته، وبدأت الأشياء تأخذ في النمو. من الجبال الشاهقة إلى مصارف المياه على جانبي الطريق، كل شيءٍ صار أخضر يافعًا، الطريق الصاعد بات يكتظ بالدجاج مبكر النضج والبط والعمال الجائلين، وطيور من كل الأحجام ترفرف في الهواء بأجنحتها السعيدة.

Telegram:@mbooks90

الوحدة المتنامية والخمود في البيت أخذا يضغطان بشكل متزايد على أعصاب فينكينبن. رأى في الميتتين نذير شؤم، فشعر، أكثر من أي وقت مضى، كما لو أنه الناجي الوحيد على سفينة غارقة. اعتاد الآن على التدخين متكئًا على النافذة لساعات، متنعمًا بمشاعر الربيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدافئة المعتدلة. كما لو أن جذوة ما، أشعلها نداء الربيع، سكنت أطرافه وحول قلبه الذي ما زال شابًا، فتذكر أيامهُ الخوالي، وشرعَ في التفكير إن كان ما يزال هناك ربيع ينتظر قلبه بين هذا العالم المتنامي، المتبرعم، المتعافي.

في أحد الأيام لم يجلب معه من المدينة علبة سجائر وآخر الأخبار فقط، لكنما أيضا قطعة صغيرة مهترئة من قماش مشمع، وورقتان جديدتان مزينتان بالزخارف الجميلة وعليهما أختام رسمية زرقاء، ولكنّها لم تُعتمد من مجلس المدينة. كيف يمكن لمسافر عتيق وجريء ألّا يعرف الفن الدقيق والغامض لإصدار الختم المطلوب على أي وثيقة مكتوبة بدقة، سواء كانت قديمة أو حديثة؟ لا يتقن الجميع القيام بذلك؛ فالأمر يلزمه أصابع ماهرة والكثير من التمرين لإزالة الجلد الداخلي لبيضة مسلوقة طازجة وفرده دون تجاعيد على ختم وثيقة إقامة أو تصريح سفر قديمين، ومن ثَمَّ نسخه إلى الوثائق الجديدة بنظافة مستعملًا الجلد الرطب.

هكذا، في يوم جميل، اختفى ستيفان فينكينبن دون إطلاق أي إنذار في المدينة أو المقاطعة كلها، وأخذ معه في رحلته قبعته الطويلة القاسية، وخَلَّف وراءه تذكارًا وحيدًا، قبعته الصوفية القديمة التي بالكاد حافظت على تماسكها. عقد المسؤولون تحقيقًا صغيرًا منصفًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن، لمَّا كانت الشائعات نقلت بأنه شوهد في ولاية مجاورة، حياً وسعيداً في مأوى آخر يفضله، ولمّا لم يكن أحدٌ هناك مهتمًا بإرجاعه دون ضرورة، والوقوف في طريق سعادته الذي اختاره، والاستمرار في إطعامه على حساب المدينة، تقرر إلغاء التحقيق والسماح للطائر الحر بتنفيذ رغباته بالتحليق أينما شاء.

بعد ستة أسابيع وصلت رسالة منه إلى الحائك، جاء فيها:

"السيد المحترمَ هيلار سوبيرل: أنا في بافاريا، والطقس هنا ليس بذاك الدفء، هل تعرف ما أرى أنه قد يكون الأفضل بالنسبة لك؟ خذ هولدريا وعصفوره واعرضهما لقاء المال. باستطاعتنا نحن الاثنين السفر معًا وإقامة العرض، ثم يمكننا أن نرفع يافطة هورلين.

صديقك المخلص، ستيفن فينكينبن، مُذهِّب مقابض الأبواب".

كان من الممكن أن تطرأ مشاكل في عش النهاية شبه الفارغ، إلا أن آخر إخوة الشمس، هولدريا، كان في غاية البراءة وسكون الطباع. مضت خمس عشرة سنة على موت هيلار واختفاء فينكينبن، والأبله ما يزال مقيمًا، معافىً بوجنتيه المتوردتين، في الشمس العتيقة. وقتًا قصيرًا كان هو النزيل الوحيد. إذ جرى -بتحفّظ وهدوء- تعليق إرسال المؤهلين الكثر لبعض الوقت، فصدمة موت الصناعي الفظيعة، والموت السريع لصانع الحبال، وهروب فينكينبن، صاغت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسها تدريجيًا كنظرية واسعة الانتشار، وحاصرت مسكن الأبله لقرابة ستة أشهر بروايات دموية وقصص رعب. بعد هذه الفترة، على أي حال، جلبت الحاجة والكسل مجددًا ضيوفًا عدة للشمس العتيقة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هولدريا وحيدًا، إذ قدم إليه بعض الإخوة الفضوليين والمضجرين، وشاركوه طعامه، ثم ماتوا. في هذه اللحظة هو أكبر زملائه السبعة، دون احتساب المدير. وفي أي يوم دافئ تستطيع رؤيتهم جميعًا على المرج العشبي إلى جانب التل يدخنون غلاوينهم القصيرة، بوجوههم التي سفعتها الأنواء، وبمشاعر شتى ينظرون إلى المدينة التي تمددت اليوم إلى أعلى وأسفل الوادي

---

(1) أنماط العربات الخشبية التي يجرها الإنسان أو الأحصنة، التي كانت شائعة قبل الثورة الصناعية. (المترجم)

(2) Gerbersau: أو مرج جيربر، هو لقب لمدينة كالْو في جنوب غربي ألمانيا، وقد تكرر ذكرها في أعمال هيسه إلى الحد الذي يمكن للمتتبع تحديد معالمها بشكل دقيق.

(3) في رحلات الصيد بالكلاب، يكون دوره تحديد نطاق الصيد وعقد التفاهمات والتعاقدات مع ملاك الأراضي، وقد لا يشهد رحلة الصيد بنفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(4) إنجيل يوحنا، الإصحاح 13 ((33-35: يَا أَوْلادِي الصِّغَارَ، سَأَبْقَى عِنْدَكُمْ وَقْتاً قَصِيراً بَعْدُ، ثُمَّ تَطْلُبُونَنِي، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ مَا سَبَقَ أَنْ قُلْتُهُ لِلْيَهُودِ: إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا حَيْثُ أَنَا ذَاهِبٌ. وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً، كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا، تُحِبُّونَ بَعْضُكُمْ. بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلامِيذِي: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.»

(5) kobold: شخصية شريرة صغيرة، شهيرة في القصص الخيالية الجرمانية، تظهر في البيوت أو المزارع أو السفن، وتحاول طرد أهلها منها. (المترجم)

(6) يشير الكاتب إلى وادي نهر الراين الأعلى والأوسط الذي سجل في مركز التراث العالمي التابع لليونسكو عام 2002 كأحد المواقع الأثرية. يمتد الوادي خمسة وستين كيلومترًا، ويتميز بقصوره ومدنه التاريخية وكرومه، وطبيعته الخلابة. والمكان مرتبط بالتاريخ وأساطير المنطقة، ولطالما ألهم الكُتّاب والرسّامين والموسيقيين. (المترجم)

(7) دهنة زيت الأرملة: وردت القصة الإنجليلية في سفر الملوك الثاني (2-4:7) ومجملها أن أرملة اشتكت للنبي إليشع فقرها وخشيتها من استرقاق مُرابٍ لابنيها، وليس لديها في البيت سوى دهنة زيت، فأمرها بجمع ما تستطيع من الجرار الفارغة وأن تملأها من هذه الدهنة القليلة، التي لم تنفد طالما كان هناك جرار تملأ، ثم أمرها ببيعها وسداد دينها، ومغزى القصة قريب من معنى الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي). المترجم

(8) الخفيفة الممزوجة بكثير من الماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(9) kreuzer: أصغر وحدة في عملة جنوب ألمانيا في تلك الفترة حتى توحيد ألمانيا. (المترجم)

(10) حتى إدخال اليورو عام 2002 كان البفينيغ الواحد جزءً من مئة جزء تُشكّل المارك الألماني.

(11) صندوقٌ موسيقيٌّ يحمله عازف جوال يحركه باليد. يسمى أيضاً الأورغن اليدوي.

(12) إناء يستخدمَ في كنائس الروم الكاثوليك والأنجليكان لعرض بعض الرموز المقدسة، وغالباً ما يجمع شكله بين شكل الشمس والصليب.

(13) ناقلو أخبار للصحف يتقاضون أجورهم تبعًا لعدد الكلمات في الخبر.

(14) يرتبط بعلاقة عاطفية طويلة الأمد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner